٢٢٥

HARLEQUIN

روايات احلام

# أريد حياتك ... فقط!

ميشيل ريد

www.elromancia.com
مرمورية

# أريد حياتك ... فقط!

ـ لكل شخص ثمن يا كارولين، وأنا أريد أن أتأكد من ثمنك. هذا كل شيء...

ـ لن أصفح عنك قطّ لهذا...

منذ سبع سنوات وقعت كارولين في غرام لويس فازكيز، ولأن لويس غدر بها فقد هربت لا تريد أن تراه مرة أخرى...

والآن، عادت إلى إسبانيا لأن أباها موين للويس بالمال، حيث أُرغمت على الزواج من هذا الإسباني القوي ذي النفوذ...

لكن الزواج من لويس لكي يضمن حصوله على إرثه شيء، والوقوع مرة أخرى في غرامه شيء آخر...

www.elromancia.com

# ميشيل ريد

ترعرعت ميشيل ريد في السفوح الجنوبية من مقاطعة «مانشستر»، وكانت الأصغر سناً في عائلة مؤلفة من خمسة أولاد يعيشون في البيت خراباً. تقيم الآن في قرية «تشيشاير» الجميلة مع زوجها رجل الأعمال المنهمك وابنتيها الراشدتين. تعشق المطالعة والباليه ولعب كرة المضرب عندما تجد متّسعاً من الوقت. تكره الطهو والأعمال المنزلية وكيّ الثياب!

والعجيب أنها قد تستغني عن النوم، فهي تنتج أجمل أعمالها في ساعات الصباح الأولى.

# ١ ـ الرجل والعقرب

أخذت كارولين تذرع أرض الغرفة واضطرابها يزداد مع كل خطوة. وصلت إلى النافذة التي تؤدي إلى الشرفة الواسعة. لم تر شيئاً من مناظر منتجع «برتو بانوس» الشهير التي يطل عليها الجناح الأنيق الذي تقيم فيه، فعادت من حيث أتت وهي تنظر إلى ساعتها بفروغ صبر.

إنها التاسعة، كان من المفروض أن يعود والدها في الساعة السابعة. لقد وعدها بذلك قائلاً: «أنا ذاهب للقيام بنزهة سيراً على الأقدام، ثم أعود لتبديل ملابسي للعشاء، أريد أن ألقي نظرة على هذا المكان القديم وأرى إن تغيّر كثيراً عما عهدناه».

إنه يعشق «ماربيا». وكانا، فيما مضى، يمضيان معظم فصول الصيف فيها. ولذا فهمت لهفته إلى استعادة ذكرياته في هذا المنتجع، ولكنها لم تفهم لِمَ رفض أن ترافقه في نزهته، ونهرها بعد أن لاحظ قلقها عليه: «لا تكوني متعِبة يا كارولين. أنا لست بحاجة إلى أن تمسكي بيدي كما أنني لست بحاجة إلى حارس شخصي. ثقي بي قليلاً بحق الله، ألم أعدك بأن أحسن التصرف؟».

وهكذا منحته بعض الثقة، وها هي الآن تسخر من نفسها، وتذرع أرض الغرفة قلقاً ولهفة، أتراه سيخيب أملها؛ وحاولت أن تطمئن نفسها. بدا حازماً وبحاجة إلى ثقتها به كي لا يقع فريسة ضعفه السابق خصوصاً بعد أن أدرك مدى الأهمية التي يعلقها كلاهما، على بقائه قوياً.

ولكن أين هو؟ لقد مضت ساعات على ذهابه. وهي تعرف ما يمكن أن يقوم به عندما يبقى وحيداً مدة طويلة.

ـ آه، يا لهذا الجحيم.

تمتمت بذلك بعدما ازداد قلقها، والتقطت حقيبة يدها المخملية السوداء واتجهت بغضب إلى باب الجناح الخارجي.

إذا اكتشفت أنه تسلل إلى حيث يزاول عادته الملعونة تلك، فلن تصفح عنه أبداً! أقسمت بذلك وهي تضغط على زر المصعد بعنف، ووقفت تنتظر وصوله بفارغ الصبر. لقد ساءت الأمور بما يكفي حتى الآن.

وتأوهت، فالأمور حقيقة أكثر من مجرد سيئة، وإلا لما كانت هنا. وأبوها يدرك ذلك جيداً، يعلم كم أصبحت تكره هذا المكان، تكره كل تلك المشاعر المؤلمة التي يثيرها في نفسها.

سبعة أعوام مرت على زيارتهما الأخيرة له، أخذت تسترجع ذكرياتها والمصعد يفتح أبوابه، سبعة أعوام منذ أُرغما على الرحيل ذليلين محطمَي القلب، مصرين على عدم الرجوع ثانية.

ومع ذلك، هاهما عادا، الآن، ليس إلى «ماربيا» وحسب، بل إلى الفندق نفسه أيضاً. ومن جديد عليها أن تذهب للبحث عن أبيها في آخر مكان في العالم تريد أن تطأه قدماها.. ذلك الكازينو التعس الذي تدرك جيداً مقدار الأذى الذي يمكن أن يلحقه بأبيها في مدة قصيرة.

وكم طال غيابه؟ تساءلت وهي تضغط على زر المصعد. ليس أقل من ساعتين، في ساعتين تعيستين يمكنه أن يخسر الآلاف، وفي ليلة كاملة يخسر حتى قميصه وبسعادة بالغة.

تماماً مثل المرة الأخيرة.

أحست كارولين بالغثيان واستندت بضعف إلى جدار المصعد الذي بدأ الآن، بابه ينغلق. وإذا بيد تتسلل بين مصراعيه من الخارج ترغمه على أن ينفتح مرة أخرى، ووجدت نفسها تستقيم في وقفتها بسرعة عندما دخل



رجل أسمر طويل إسباني الملامح، يرتدي بذلة للاحتفالات سوداء أنيقة. دخل برشاقة إلى المصعد ووقف بجانبها.

ـ آسف لأنني أخرتك.

قال ذلك بإنكليزية ناعمة وابتسم لها ابتسامة سرعان ما تلاشت عندما توقفت عيناه عليها.

ـ لا بأس.

أجابته ثم أشاحت بصرها عنه حتى لا تشجعه على الإسترسال في الحديث.

تحرك بهما المصعد، فاستندت إلى الرف وهي تشعر بنظراته تتفحصها، فتظاهرت بعدم ملاحظة ذلك. فالأمر ليس جديداً عليها. فهي شقراء وتتمتع بقوام رشيق ومتناسق وبساقين طويلتين، وهذا ما يدير أعناق الرجال، لاحظت قبل أن تخفض بصرها أنه هو أيضاً حسن المظهر.

ولكنها لم تكن بمزاج يسمح لها بالتحدث إلى أي كان، واكتأبت وهي تفكر في الوقت الطويل الذي مضى منذ عاشت الحب.

في الواقع، كان ذلك منذ تعرفت بلويس، هنا في «ماربيا»، لكنها أزاحت من ذهنها هذه الذكرى قبل أن تتشبث بها، عاهدت نفسها قبل أن تحضر إلى هنا ألا تفكر في لويس، فهو ينتمي إلى ماضٍ بعيد، مع غيره من الذكريات المرة التي تحملها من هذا المنتجع. وهذا الرجل الطويل الأسمر الذي في المصعد، يشبه لويس إلى درجة يصعب معها الوفاء بذلك العهد.

شعرت بالراحة عندما توقف المصعد وتمكنت من الهرب من نظرته القوية الفاحصة، قبل أن يحاول التحدث إليها. وبعد لحظات نسيته تماماً، وبرزت من جديد مشكلة العثور على أبيها، ووقفت على أعلى السلم المؤدي إلى الردهة الرئيسية، وتفحصت المكان المزدحم أمامها.

هذا الفندق هو أحد أفخم الفنادق في منتجع «برتو بانوس» في ماربيا. وقد اكتسب، منذ سنوات، سمعة طيبة بسبب طرازه القديم الرائع الذي

جعله مرغوباً لنوع معيّن من النزلاء، ومنهم هي وأبوها.

لكن أعيد افتتاحه منذ مدة قصيرة بعد تجديد شامل له قام به أصحابه الجدد، فزاد سحراً وتألقاً. واختلف النزلاء عن قبل، وأصبحوا أقل تحفظاً واعتداداً بمراكزهم الاجتماعية، ولكنها لم تشكّ لحظة في أن بإمكانهما دفع التكاليف الباهظة لإقامتهما.

وهذه الأيام لم تعد تسأل عن أسعار الأشياء وحسب، بل أصبحت تحسب في عقلها وقت العمل المطلوب منها لتجني المبلغ المنشود.

وفي الواقع، أصبح المال أو نقصانه الآن هاجس كارولين، خصوصاً أن منزل أسرتها تحول إلى غول نهم يلتهم كل المدخرات.

قطبت جبينها وهي تواصل البحث عن أبيها صاحب القامة الطويلة النحيلة بين ذلك الحشد من الناس الموجودين في الردهة، لكنه لم يكن بينهم، فهبطت الدرجات برشاقة تخفي توترها الداخلي، واتجهت إلى موظفة الاستعلامات لتسأل عما إذا كان ترك خبراً لها.

لكنها لم تجد خبراً، فسارت نحو مقصف الفندق يحدوها أمل واهٍ بأن يكون صادف شخصاً يعرفه فاستغرقه الحديث، ونسي الوقت.

لكن أملها خاب مرة أخرى، وارتجف قلبها وهي تدرك أنه لم يبق أمامها سوى مكان واحد عليها أن تبحث عنه فيه.

إتجهت، متجهمة الوجه، نحو السلم المؤدي إلى الطابق السفلي تحت الأرض. إن نزول هذه الدرجات يتطلب منها نوعاً من الشجاعة ليس في إمكان أحد فهمها إلا إذا عرفها منذ سبع سنوات. وعندما وصلت إلى الأسفل ازداد ارتجافها. ذلك أن التغيير هنا لا يكاد يذكر.

وردهة الطابق السفلي ما زالت على عهدها من الأناقة وحداثة الطراز، وما زالت فيها لوحة تشير إلى اليسار أي إلى اتجاه قاعة الألعاب الرياضية، وغرف التجميل وبركة السباحة الداخلية.

البابان إلى اليمين ما زالا موصدين كعهدهما دوماً، ويتمّ ذلك لإخفاء ما



يدور وراءهما عن الأعين الفضولية.

لكن اللافتة المعلقة فوق البابين واضحة، فإنّ كلمة «كازينو» مكتوبة عليها بأحرف ذهبية واضحة. وهذا مكان أبيها المفضل، المكان الذي تسير فيه الإثارة المتشنجة مع اليأس جنباً إلى جنب، وحيث تقليب الورق أو رمي الزهر أو إدارة العجلة القادرة على تدمير الإنسان.

إذا أذعن لنفسه الأمّارة بالسوء، وذهب للبحث عن الإثارة، فهو إذن وراء هذين البابين. تنبأت بذلك وهي تتقدم مكرهة إلى الأمام.

- سيخيب أملك.

قال ذلك الصوت الأجنبي النبرة ببطء.

استدارت بدهشة، وإذا بها تحدّق في ذلك الغريب الذي كان معها في المصعد، الطويل الأسمر والوسيم، ومرة أخرى شعرت بالغثيان السابق لأنها رأته يشبه، بشكل غامض، لويس. العمر نفسه، البنية نفسها واللون الإسباني الأسمر ذاته.

- أرجو المعذرة؟

قالت ذلك وهي تفكر في أنها قابلت لويس للمرة الأولى في هذه الردهة بالذات، وكانت هي تتسكع، مترددة، بهذا الشكل، بينما هو يبتسم لها، مثل هذا الرجل، الآن...

قال وهو يشير برأسه الأسود الشعر نحو الباب المغلق: «الكازينو، لن يفتح قبل العاشرة.. أبكرتِ جداً في المجيء...».

نظرت إلى ساعتها لتكتشف أنها التاسعة والربع فقط. جعلها شعورها بالراحة تبتسم للغريب بحرارة.. لأن معنى هذا أن أباها ليس في الداخل، ليدمّر ما بقي لديهما من أمل في إنقاذ منزلهما!

شعرت الآن بالذنب لعدم ثقتها بأبيها، ولغضبها منه ولسوء ظنها به، بينما هو لا يبادلها المشاعر نفسها.

- ربما يمكنني إقناعك بتناول فنجان من القهوة معاً بانتظار أن يفتح

الكازينو أبوابه؟

احمر وجه كارولين لأنها أدركت أنه أساء تفسير ابتسامتها المفاجئة. والحديث معه الذي تجنبته في المصعد، عاد منتقماً ذلك الانتقام الذي جعله يمنحها ابتسامة آسرة.

ولكن كارولين أجابته ببرودة: «أشكرك، فأنا هنا برفقة شخص».

ثم اتجهت عائدة إلى السلم.

ـ هل هو أبوك السير إدوارد نيوبري؟

جعلها سؤاله تتوقف عن السير: «هل تعرف أبي؟».

ـ لقد تعارفنا.

وابتسم. لكن ابتسامته هذه جمّدت دم كارولين، بدا وكأنه يعرف شيئاً لا تعرفه هي ويسخر من تلك المعرفة.

أو يسخر من أبيها، وقال: «لقد رأيته لتوّي، كان يجتاز الردهة إلى المصاعد منذ دقائق فقط، وبدا مسرعاً».

وظهرت مرة أخرى ابتسامته الكسول الساخرة، فانزعجت، قالت بأدب: «شكراً لك على اطلاعك لي على هذا الخبر».

ثم أشاحت عنه مرة أخرى، وذهلت عندما وضع أصابعه حول معصمها، متمتماً: «لا تسرعي بالذهاب، إنني حقاً أريد التعرف إليك بشكل أفضل».

كان صوته بالغ الرقة، لكن قبضته كانت تنذرها بأنها إذا حاولت التخلص منها فستشتد أصابعه بشكل مؤلم.

لم يعجبها هذا الرجل، لم تعجبها وسامته الرقيقة ولا ثقته بنفسه ولا ظرفه الظاهر في الوقت الذي يستعمل فيه قوته لاحتجازها.

لم يعجبها أن يلمسها وارتابت في أنه كان يمشي في إثرها منذ تركت المصعد.. كما لم تحب هذا الإحساس بالضعف الذي يتملكها نحو من هو أقوى منها ومن هو واثق من نفسه إلى حد الجرأة على إعاقتها بهذا الشكل.



ـ دعني من فضلك.

اشتدت قبضته، فتسارعت خفقات قلبها وهو يقول: «ولكن إذا أنا تركتك تذهبين فلن تعلمي كيف تعرفت إلى أبيك، أو ربما الأهم من ذلك، أين تعرفت إليه..».

ـ أين؟

سألته وهي تعلم أنه يتعمد ابتزازها بهذه المعلومة.

ـ تناولي معي فنجاناً من القهوة، وسأخبرك.

لكن غريزتها حدثتها بأن تهرب منه.

تملكها الغضب، لأنه إذا ظن أنها قد تخضع لمثل هذا النوع من الإرغام على مرافقته، فهو مخطىء، فأجابت بلهجة بالغة البرودة: «لو كان أبي يظن أن تعارفكما شيء هام، لأخبرني بذلك بنفسه. والآن، إذا سمحت!».

وشدّت يدها من قبضته بعنف، ثم صعدت السلم بحزم دون النظر إلى الخلف. لكنها شعرت برجفة في داخلها، لأنها خشيت أن يلحق بها. وكان إحساس غير سار ذلك الذي لازمها أثناء صعودها السلم وعبورها الردهة المزدحمة قاصدة المصاعد. ولم تشعر بالأمان إلا بعد أن انغلق عليها باب المصعد وحدها.

وكان معصمها يؤلمها، فنظرت إليه ولم تدهش حين رأت جلدها الرقيق يتورّم. من تراه يكون؟ ومن هو بالنسبة إلى أبيها، ما الذي جعله يعتقد بأن من الجائز له التطفل عليها بهذا الشكل؟

شعرت بقلق جعلها تتوجه رأساً إلى غرفة أبيها لتكتشف الأمر، ولكن بعدما قرعت الباب بعنف ثم فتحته، شعرت بخيبة أمل إذ بدا لها أنه كان هنا ثم خرج مرة أخرى.

وعلمت، من طريقة إلقائه ملابسه على الأرض بشكل عشوائي، أنه بدّل ملابسه بسرعة قياسية.

هل فعل ذلك لكي يتجنبها؟ آه، نعم..! كان يريد تجنبها.. وهذا لا

يعني سوى شيء واحد.

لقد أفلت زمامه.

وفي نوبة غضب وقنوط، انحنت لتلتقط بنطلوناً كان ملقىً على الأرض، وعندما التقطته لتضعه على السرير، سقط شيء من أحد جيوبه، وارتطم بحذائها، إنحنت لتلتقطه وإذا بها تكتشف أنه مجموعة من الإيصالات، أخذت تتصفحها بأصابع مرتجفة.

لم تتحرك بعد ذلك، ولم تتنفس، وبقيت لحظات طويلة عاجزة عن التفكير بشكل مترابط. ثم، بدأت تفتش كل قطعة من ملابسه بهدوء يعبّر عمّا يعتمل في أعماقها.

وبعد عشر دقائق، كانت تقف في منتصف غرفة أبيها، محدقة في الفضاء كتمثال من حجر، إنها هنا في «ماربيا» منذ أقل من أربع وعشرين ساعة، وأثناء ذلك، كما تقول الإيصالات، خسر أبوها ما يقارب الألف جنيه.

***

وقف لويس ڤازكيز بجانب نافذة غرفة المراقبة ذات التقنية العالية، ناظراً إلى أسفل، حيث أرض كازينو هذا الفندق الذي هو آخر مقتنياته في سلسلة فنادقه الفخمة.

لم يكن بمقدور أحد أن يراه من أسفل. كانت النافذة تسمح له بالنظر إلى الخارج، لكنها لا تسمح لأحد بالنظر إلى الداخل. وخلفه، كانت المراقبة الحقيقية قائمة بواسطة شاشات تلفزيونية يراقبها موظفو الأمن عنده بأعين كأعين الصقور. وكانت النافذة مجرد وسيلة ثانوية يمكن بواسطتها مراقبة أرض الكازينو بشكل عام.

يفضل لويس تفحص الأرض بعينيه هكذا، وهي عادة تملكته عندما كان لا يثق بما لا يراه بنفسه.

والآن اختلفت الأمور. فهو لم يعد بحاجة إلى المخاطرة لكي يعيش، إذ أصبح يملك الثروة والقوة وإحساس عميق باحترام الذات.



وقطب حاجبيه. فاحترام المرء لذاته لا يكسبه احترام الآخرين بشكل آلي، إنه درس قاس تعلّمه يوماً، وينوي أن يعود إليه لمعالجته وتعديله بشكل أفضل.

كان هذا، في الواقع، مشروعه الأهم.

تقدم «ڤيتو مارتينيز» المسؤول عن أمن الفندق، ووقف بجانبه وقال: «لقد عادت إلى غرفتها، وهو وصل لتوّه إلى مقصف الكازينو».

ـ هل هو متوتر؟

فأجاب ڤيتو: «نعم. إنه يدندن متوتراً، لقد نضج وحان قطافه».

قال ذلك مثبتاً، بهذا التعبير، نشأته في شوارع نيويورك.

أومأ لويس ڤازكيز ثم ابتعد عن النافذة وأساريره جامدة كالعادة، وهذا ليس غريباً على شخص مثله.

ـ أخبرني عندما يأتي إلى الموائد.

قال ذلك ثم خرج من غرفة المراقبة بخطواته الواسعة الرشيقة، واجتاز جناحه الداخلي الخاص ذا الأرض المبلطة بالرخام الأسود والتبني اللون، واتجه إلى باب آخر دخل منه وأغلقه خلفه.

وفجأة ساد الصمت.

بينما كانت الغرفة الأخرى تعج بالحركة، انعكس الواقع في هذه الغرفة التي كان يُسمع فيها رنين سقوط الإبرة على السجادة التبنية السميكة. كانت غرفة مترفة، أثاثها عصري منجد بالجلد الأسود.

الغرفة شبيهة بصاحبها، وهي مثله لا تفصح عن شخصيته الحقيقية، ما عدا، تلك الصورة، في الإطار الأسود، المعلقة على الحائط خلف مكتب عريض أسود.

كانت الصورة بسيطة، ككل شيء هنا.. لا شيء فيها سوى تخطيط ذهبي باهت لعقرب سام ملتصق على الخلفية البيضاء وذيله البشع المظهر ملويّ إلى أعلى، استعداداً للّسع.

إن مجرد النظر إلى هذه الصورة يجمّد الدم في العروق، مع أن كرسي لويس ڤازكيز قابعة تحت تلك الصورة المميتة، ولكنه ليس هو المهدد، وإنما أيّ شخص قد يدفعه سوء حظه إلى الجلوس على الكرسي القائم في الجانب الآخر للمكتب.

في الصورة رسالة واضحة تقول: «اغدر بي، ألسعك».

إنها شخصيته، وفلسفته في الحياة، وشعاره. من زمان رافقته صورة العقرب الذهبي وكانت تزيّن كل ما يشترك فيه لويس ڤازكيز، وذلك منذ أصبح أكثر حذقاً ودهاء. أما الآن فهو يحتفظ بهذه الصورة لأسباب شخصية فقط، من أجل تحذير أي شخص قدّر له سوء حظه أن يُستدعى إلى هذه الغرفة الخاصة، تحذيره بأن لويس ڤازكيز الهادىء الرابط الجأش المعسول الكلام ما زال في ذيله لسعة سامة.

لكنه، هذه الأيام، أصبح أكثر حكمة بالنسبة إلى فلسفته الجديدة التي جعلته يمنح سلسلة فنادقه الفخمة المجدّدة، اسمها. ومنحته شهرة واسعة نظراً للخدمة الجيدة والراحة، التي أمّنها لزبائنه في السنوات العشر الأخيرة.

لأن هذا كان «فندق الملاك».. ملاك الخير والصدق والحق.

لكن ذلك كان امتزاج السموّ بالتفاهة ومثلاً لما يمكن أن يفعله التسويق الجيد، لأن في جميع فنادقه كازينوهات هي مغريات حقيقية، والإسراف الذي يستمتع به نزلاؤه الأثرياء أثناء اللعب، هو مجرد كسب إضافي له.

وربما كان «العقرب» أكثر صدقاً في تمثيل شخصية لويس الحقيقية.

سار لويس ثم جلس تحت ذلك العقرب، الآن، وانحنى يفتح أحد أدراج المكتب بأصابعه الطويلة الضامرة الرائعة الشكل التي تكشف المزيد عن شخصية صاحبها غير العادية بقوتها ورباطة جأشها، أصابعه هذه أخرجت من الدرج الشيء الوحيد الموجود فيه ووضعته على سطح المكتب.

كان ملفاً جلدياً ثميناً ولكن ليس في مظهره أي سوء، ومع ذلك لم يفتحه مباشرة. وإنما اتكأ إلى الخلف في كرسيه وأخذ ينقر بأصابعه على



المكتب، شارد الذهن. كانت ملامحه جامدة، كالعادة، فكل ما كان يجول في عقله الذكي، اختفى تحت أهدابه السوداء التي تحجب عينيه عادة. تانك العينان الرائعتان البنيتا اللون اللتان لا يُسبر غورهما، والمستقرتان في ذلك الوجه الآسر بوسامته. إنه أسباني الدم أميركي النشأة، ذو بشرة سمراء ذهبية دافئة تشير إلى أصله الأسباني، وذو وجنتين عاليتين، وأنف أقنى وذقن عريض وفم رائع الجمال.

ولكن كل هذه الملامح الحسنة تشكل وجهاً لرجل هادىء بارد.. لرجل معروف بأنه لا يملك قلباً.. أو - إذا شئنا الواقع - يملك قلب رياضي يمكنه أن يحتفظ بنبضات هادئة ثابتة هي ضرورية لمداومة ضخّ الأوكسيجين في عقله الذكي مهما يكن مقدار الضغط الذي يرزح تحته.

توقفت أصابعه عن النقر على المكتب، وامتدت إلى الملف الجلدي تفتحه لتكشف عن رزمة مستندات في داخله. ثم أخذ يبحث بين الأوراق حتى وجد ما يبحث عنه. أخرجه ثم نشره أمامه، وإذا به يجمد في مكانه وقد التمعت عيناه فجأة وهو ينظر إلى صورة ملوّنة لـ... كارولين.

إنّ جمالها غير عادي، لا شك ولا أحد قادر على إنكار ذلك: شعر بلون القمح الناضج يحيط بوجه هو من الرقة والكمال، بحيث لم ير لويس ڤازكيز مثله على الرغم من سنوات عمره الخمس والثلاثين، بشرتها الوردية الإنكليزية لا عيب فيها، وعيناها بلون البنفسج.. وأنفها صغير مستقيم كلاسيكي الشكل وكذلك ذقنها الرقيق التكوين. لكن الفم هو الذي أثار انتباه لويس. فقد كان ناعماً مكتنزاً وردي اللون.. إنه وجه خُلق ليسلب عقول الرجال.

وكان لويس طبعاً يعرف ذلك، ويعرف مدى تأثيره فيه هو نفسه.. وقد صمم الآن أن يقترب منها من جديد فهو يريدها قربه.. يريدها قربه..

ثقته بذلك جعلت ذلك اللهب في عينيه يعود إلى برودته العادية فقد لجأ إلى مزيّة أخرى من مزاياه القوية، وهي الصبر. كان هذا الرجل يتمتع بصبر

غير محدود لكي يبلغ هدفاً وضعه أمامه.

وهدفه التالي كان كارولين. وهو الآن متيقن أنها أصبحت، بالنسبة إليه، ملك يمينه، وهذا الإيمان بنفسه هو الذي جعله يضع صورتها جانباً وينسى وجودها ليبدأ بقراءة بقية الأوراق في الملف.

كان أكثرها قوائم حساب، إنذارات باستحقاق الدين، والاستيلاء على المرهونات من الأملاك. وأكثر الأشياء شؤماً، هي القائمة الطويلة بديون القمار غير المدفوعة، القديمة منها والجديدة، أخذ يقرأ كلاً منها بدورها، حافظاً كل التفاصيل عن ظهر قلب قبل أن يضعها جانباً ويتناول التالية. لمع ضوء على المكتب، فجأة، فمد إصبعه يضغط على زر هناك، قائلاً: «نعم؟».

فقال ڤيتو مارتينيز: «إنها تنزل إلى أسفل. وهو يلعب بمبالغ كبيرة».

ـ حسناً.

قال لويس ذلك، ثم ضغط الزر مرة أخرى وساد السكون.

عاد بانتباهه إلى الأوراق أمامه، فرفعها كلها، بما فيها الصورة الفوتوغرافية، ثم أعادها جميعاً إلى الملف وأعاده إلى مكانه في الدرج. ثم وقف وغادر غرفة المكتب.

وعندما عاد إلى غرفة المراقبة، كان ڤيتو مارتينيز واقفاً عند النافذة فوقف لويس بجانبه، ثم تابع إيماءة ڤيتو نحو إحدى موائد الروليت.

طويلاً لطيفاً بالغ الوسامة بالنسبة إلى سنّه، وبالغ الأناقة كعادته، كان السير إدوارد نيوبري يقامر.. وقد بدت ملامحه متوترة جداً.

تمكن لويس من تمييز مظهره بالضبط.. كان رجلاً على وشك الانفجار بعدما وقع في الفخ. بدا الآن وكأنه على استعداد لبيع روحه للشيطان نفسه.

لقد نضج، حسب تعبير ڤيتو.

حوّل لويس اهتمامه بقسوة، وعدم دهشة، بعيداً عن السير إدوارد نيوبري ناظراً، في الوقت المناسب كعادته دوماً، إلى المدخل، في اللحظة التي



برزت فيها كارولين. فتجمد في هذه اللحظة كل شيء في داخله.

سبع سنوات مرّت منذ وقعت عيناه عليها للمرة الأخيرة.. ومع ذلك لم تتغيّر. الشعر، العينان، البشرة الرائعة، الثغر البديع الجمال بشفته العليا الرقيقة والسفلى الممتلئة. ولم يفقد قوامها الطويل الرشيق، الذي يبرز جماله ثوبها الأسود البالغ الأناقة، فتوّته وصلابته. بهذا كانت تحدّثه مشاعره التي التهبت، فجأة، بشكل لا يمكن أن يلهبها سوى هذه المرأة التي تمثل نقطة ضعفه. إن رغبة هذا الولد غير الشرعي في امتلاك هذه الفتاة الأرستقراطية النشأة أقوى مما يقدر على احتماله.. إن كل شيء فيها حتى اسمها، كارولين أورورا سيلاندين نيوبري.. كان غير عادي. لها شجرة عائلية تُقرأ ككتاب تأريخ، وثقافة لا يحظى بمثلها إلا الصفوة من الناس، ومنزلاً من الفخامة والروعة، بحيث يحسدها عليه أي ملك.

كانت هذه أوراق الاعتماد التي منحت آل نيوبري الحق في اعتبار أنفسهم من طبقة النبلاء، ولكي يكون المرء صالحاً حتى يقبلوه بينهم، عليه أن يكون شخصاً غير عادي، على الأقل، حتى في هذه المرحلة، وهم راكعون مذلة ولا يمكنهم التدقيق في الاختيار، فنشأة المرء هي المقياس الذي يقيسون به ما إذا كان الشخص يستحق منهم الانتباه.

بدت كارولين بالغة الشحوب، فراح يراقب قلقها وهي تتفحص أنحاء الكازينو باحثة عن أبيها المشاكس. كما بدت متوترة وغير مرتاحة لما يحيط بها، فهي لا تحب مثل هذه الأماكن.

لمحت أباها عندما أخذت عجلة «الروليت» تدور، ورأى لويس جسمها يتصلب ووجهها الجميل يتوتر وأسنانها الصغيرة البيضاء تعض شفتها السفلى والقد الميّاس يمشي إلى الأمام.

انطبقت أسنانه بشدة خلف شفتيه وهو يراها تقف خلف أبيها على بعد خطوتين، ثم تعقد أصابعها على بطنها وكأنها لا تعرف ما ستفعل.

في الواقع، ودت كارولين لو تمسك بأبيها من رقبته من الخلف ثم تجره

خارج هذا المكان، لكن نشأتها الراقية هي التي منعتها من ذلك. وكان لويس يعلم هذا، فعلى المرء في قوانين المجتمع الراقي ألا يثور غضباً بشكل قبيح أمام الناس، مهما كان الوضع سيئاً.. حتى ولو كانت تعلم أن أموالها مستدانة وأن ما يفعله أبوها جريمة. «اللون الأسود»، وخسر السير إدوارد، كحاله منذ وصوله إلى ماريبا ليلة أمس.

وعندما أبدى الأب إشارة إحباط، بدا على الابنة الذبول.

ـ بابا...

حتى لويس شعر بحذرها وخجلها وهي تضع يدها على كم أبيها محاولة أن تجعله يصغي إلى صوت العقل.

لا فائدة، كما رأى لويس. فقد جنّ الرجل تقريباً بحمّى المقامرة، وحين تتملك الحمّى المقامر، لا يكون الشفاء سريعاً، فليس بإمكان السير إدوارد أن يتوقّف الآن، حتى لو خسر قميصه، أو ما هو أكثر من ذلك.

وهذا (الأكثر) هو ما كان يريده لويس.

بعدما أجفل السير إدوارد مدهوشاً، وألقى نظرة شعور بالذنب من فوق كتفه، عادت إليه شراسته.. تلفّظ بشيء ما ونفض يد ابنته عن ذراعه لكي يتمكن من وضع كدسة أخرى من الفيشات، على المائدة. كل ما استطاعت كارولين عمله هو الوقوف والنظر إلى خمسة آلاف جنيه تتأرجح حتى تستقر الكرة على أحد اللونين الأحمر أو الأسود. «الأسود».. وخسر السير إدوارد مرة أخرى.

ومرة أخرى حاولت كارولين أن تمنعه، ومرة أخرى دفعها جانباً بفظاظة. هذه المرة فقط وجد لويس يديه تنقبضان إلى جانبيه لأنه لمح بريق الدموع في عينيها الجميلتين اللتين كانت تديرهما في أنحاء الكازينو المزدحم باحثة عن عون حيث لا يمكن وجوده.

ثم، ودون إنذار، رفعت بصرها فجأة إلى غرفة المراقبة فاستقر عليه بدقة خطفت أنفاسه.



بقي لويس جامداً مكانه. كان يعلم أنها لا تستطيع رؤيته، فهذا الزجاج لا يسمح بذلك أبداً، ومع هذا...

تملكته رجفة خفيفة في لحظة فقد فيها الشعور بكيانه وأخذ يحدّق مباشرة في تينك العينين الرائعتين المتألقتين بالدموع، شعر بالاختناق وانقبض قلبه. وعندما ارتجف ثغرها الصغير بيأس بالغ أرسل في جسده رعشة كهربائية.

تمتم ڤيتو بجانبه بهدوء: «لقد ربح».

رأى لويس من زاوية عينه تجاوب السير إدوارد نيوبري وهو يرفع قبضته في الهواء منتصراً. لكن انتباهه بقي مركزاً على كارولين، التي بقيت واقفة تنظر بفتور وكأن الربح والخسارة سيان بالنسبة إليها.

إستدار فجأة قائلاً لڤيتو: «سأنزل إلى أسفل. تأكد أن كل شيء جاهز عندما نترك هذا المكان».

وعندما ابتعد، لم ينبىء صوته ولا حركاته عن شيء من المشاعر المتفجرة التي استحوذت عليه.

ـ نعم!

استدار السير إدوارد مسروراً وأخذ ابنته بين ذراعيه.

ـ ربحنا مرتين، يا حبيبتي! مرتان أخريان ونطير في السماء.

لكنه كان يطير فعلاً، فقد كان تألق عينيه مخيفاً، فتوسلت إليه كارولين: «أرجوك يا أبي، توقف الآن عن اللعب ما دمت ربحت. هذا...» جنون، كانت على وشك أن تقول هذا.

لكنه قاطعها: «يا لك من مفسدة للبهجة! إنها ليلة حظنا، ألا ترين ذلك؟».

وتركها وعاد إلى طاولة الروليت حيث أخذ الموظف يجمع له أرباحه ليدفعها إليه، فقال له: «ضعها في العجلة».

ولم يكن أمام كارولين إلا أن تنظر بعجز إلى كل بنس ربحه وهو يوضع في دورة واحدة من عجلة الروليت.

احتشدت مجموعة حول المائدة، وتلاشت تمتماتهم المتحمسة عندما أخذت العجلة بالدوران، توقفت كارولين عن التنفس والتصق لسانها بحلقها الجاف كالورق وراحت ترقب الكرة العاجية تؤدي رقصة الحظ.

كان الغضب والثورة يجيشان في قلبها، لكنها اعتادت عدم إظهار ثورات الغضب أمام الناس. ولأن أباها كان يعرف هذا السلاح، فقد كان سعيداً باستعماله ضدها. في مثل هذه اللحظات كان يعتمد على حسن تصرفها ويترك لنفسه حرية التصرف الشنيع.

ما كان أكثر وعوده المخلصة.. فكرت في ذلك هازئة وهي تراقب، بعينين جامدتين، العجلة التي بدأت تتباطأ، وما أكثر الأسابيع والشهور والسنوات التي علمتها أن الثقة بأي شيء يقوله ما هي إلا طريقة لمواجهة المصائب.

لقد تعبت من ذلك، أنهكها الحرب والشجار على حساب كل شيء آخر في حياتها. وتملكها شعور مفزع بأنها لن تتمكن هذه المرة من الصفح عنه لما فعله بها مرة أخرى.

لكنها، حالياً، لن تستطيع إلا أن تتفرج. إنها فريسة لأسوأ كابوس وأين؟ في هذا المكان من العالم حيث الكوابيس مطلقة الأعنّة. هذا المكان، هذا الفندق.. هذا الكازينو التعس القذر. لم يعد ينقصها الآن إلا أن يظهر لويس ڤازكيز أمامها فيتم الكابوس.

وإذا بشخص يقف خلفها مباشرة. شعرت بأنفاسه الحارة تداعب رقبتها.. شعرت بذلك مع أنّ اهتمامها مركّز على تلك الكرة الصغيرة المعذّبة في تقافزها الماجن من لون إلى لون.

إضافة إلى غضبها وثورتها كان هناك التوتر والترقب الذي كان الإثارة الحقيقية، والجنون الفعلي. إن ذاك الغضب وتلك الثورة وهذا التوتر والترقب كان يتغلغل فيها كعقّار سام لا يستطيع أحد مقاومته.

ـ نعم!



اخترق صفير أبيها المنتصر طبلة أذنها كقرع مئات الصنوج، وهتف الحشد حوله يشاركونه بهجته وحظه الحسن، لكن كارولين بدت ذاوية كزهرة تموت. كان قلبها يتخبط بحيرة في أعماقها. شعرت بالغثيان، بالدوار.. ولا بد أنها ترنحت قليلاً لأن ذراعاً تسللت لتحيط بخصرها تسندها. والدليل على مقدار الضعف الذي تشعر به هو أنها تركت تلك الذراع تسندها إلى الجسد الصلب المتين الواقف خلفها.

كانت تفكر بذهن متبلّد أنها لن تستطيع منعه الآن. وهو لن يرضى إلا بعد أن يخسر كل ما ربحه لتوّه.. وأكثر، فهي لا تعتبره رابحاً الآن، لأن الربح ليس الرغبة الحقيقية التي تدفع شخصاً مثله إلى المقامرة. كان الأمر، ببساطة، رغبة ترغمه على اللعب مهما كانت النتيجة.

سرت في كيانها رجفة جعلتها تشعر فجأة بأنها تستند إلى رجل غريب. توترت وهي تبتعد عنه قليلاً واستدارت وما زالت ذراعه تحيط بها، لتتمتم بأدب بارد: «شكراً، لكنني...».

وتجمدت الكلمات وتوقفت عن التنفس ووقفت تحدّق في عيني شيطان سوداوين مألوفتين لديها، عينين أوقعتاها داخل عالم مرفوض.

قال يحييها بنعومة: «مرحباً، يا كارولين».

***

## ٢ ـ عودة الماضي

قفز قلبها من مكانه، ثم أخذ يخفق بعنف.

ـ لويس...

هتفت بذلك من بين شفتين بالكاد استطاعتا الحركة، لا.. هتف بذلك عقلها.. إنها هلوسات.. إذ تحلم به صاعداً من أعماق مخاوفها.. لأن هذا المكان وجنون أبيها هما مترادفان في عقلها مع هذا الرجل. «لا...».

قالت ذلك مستنكرة بصوت مرتفع.

ـ آسف، ولكن.. نعم.

أجابها بذلك هازلاً بجفاء. لكن هذا الهزل لم يصل إلى ظلمة عينيه، إذ بدأت الغرفة تظلم حولها وتحولت الصدمة في نفسها إلى ذعر مؤلم.

ـ اتركني من فضلك.

قالت ذلك وهي ترتجف، متلهفة إلى الابتعاد عنه بعض الشيء لتتمكن من مواجهة الأمر.

ـ طبعاً.

أبعد يده عنها على الفور. ولسبب غريب، وجدت نفسها تقارن بين موافقته الفورية هذه، وعدم الإكتراث البالغ الذي أظهره ذلك الغريب في الطابق السفلي عندما طلبت منه الشيء نفسه.

ذاك كان رجلاً ذكرها بلويس.. رجلاً لم يعجبها منذ النظرة الأولى، بينما لويس..



قال ونظره مركز على ما كان يجري خلفها: «أرى الحظ بجانب أبيك».

ـ أحقاً؟

سألته ذلك بارتياب جعل نظراته تعود إلى وجهها.

لكن كارولين لم تعد تستطيع النظر إليه، إن ذلك يؤلمها، لأن لويس يمثل كل ما تحتقره في رجل. التسلط، الكيد، الخداع، الخيانة.

تملكتها فجأة مرارة غمرت كيانها، أرادت أن تبتعد عنه، ولكن، في اللحظة نفسها، بدأ الحشد يدفعها، متلهفين لتهنئة أبيها، إظهاراً لسرورهم برؤية واحد منهم يهزم الكازينو، عادت ذراع لويس تحيط بها تحميها هذه المرة من دفع الناس لها. ووجدت كارولين نفسها مضغوطة إلى جسمه بشكل جعلها تتمنى الموت على ذلك.

تصاعدت دقات قلبها وتسارعت أنفاسها، كان ذلك فظيعاً. فقد تدفقت الذكريات إلى ذهنها. لقد تحابا ذات يوم، تحابا كثيراً. وها هما الآن هنا، قد حشرهما الحشد الذي حولهما، معاً. جاعلاً من ذلك أسوأ عقاب يمنيها به القدر بسبب غبائها في الموافقة على العودة إلى هنا.

قالت بلهجة لاذعة ساخرة: «أما زلت تقامر لتعيش، يا لويس؟ لا أدري ما الذي ستفعله هيئة الإدارة إذا علموا أن لديهم، في ناديهم، مقامراً محترفاً».

ضاقت عيناه السوداوان، ولأنها كانت مرغمة على الالتصاق به، فقد شعرت بجسده يتوتر.. ثم سألها بحذر: «هل هذا تهديد مبطن منك؟».

أهو كذلك حقاً؟

سألت كارولين نفسها، مدركة أن كل ما يلزم لذلك هو كلمة هادئة لهيئة الإدارة، فيخرجوا لويس بهدوء حازم من هذا المكان. ولكن..

ـ كان هذا مجرد سؤال.

وتنهدت عالمة بأن ليس لها الحق في انتقاد لويس فأبوها يماثله سوءاً.

أجاب: «إذن، الرد على سؤالك هو، لا. فأنا لست هنا للعب».

لكنها لم تكن تصغي إليه. لقد خطرت لها فكرة مفاجئة، فكرة جعلت قلبها يقفز في صدرها. فتمتمت بسرعة: «لويس.. إذا تحدثت بهدوء إلى مجلس الإدارة بشأن أبي، فهل سيمنعونه من الاستمرار في المقامرة؟».

فقال هازئاً: «ولِمَ يمنعونه؟ هو ليس محترفاً، بل مجرد رجل تحولت رذيلته إلى هاجس».

أكملت تقول وهي ترتجف: «هاجس انتحاري».

أخذت يده التي على ظهرها تمرّ عليه برفق. والأسوأ أنه لم يقل شيئاً، كان يعرف أباها.. يعرفه جيداً جداً.

شدّ ما أكره هذا!

همست بذلك، متمنية لو كان بإمكانها أن تبتعد متظاهرة بعدم حدوث شيء. لكنها لم تستطع، وبشكل ما، بطريقة ما، عليها أن تحاول وضع حد لهذا الجنون من أبيها قبل أن يدمرهما تماماً.

قال لويس: «أتريدين أن أوقفه عن اللعب؟».

رفعت بصرها إليه بلهفة: «وهل يمكنك ذلك؟».

أجابها بأن رفع بصره إلى حيث كان أبوها يخرج من بين حشد المهنئين، ثم قال له: «سير إدوارد».

كان هذا كل شيء. لم يرفع صوته، ولم تتضمن لهجته أي تحدٍّ، وإنما مجرد كلمتين هادئتين ولكن كان لهما تأثير كبير إذ توقف بسببهما طنين الإثارة الذي يسود المكان.

كما وقف شعر رأس كارولين وهي ترى أباها يستدير. وفي لحظات الصمت المتوتر الطويلة، شعرت بالصدمة التي تملكت أباها. لكن استفاقته منها كانت سريعة. فقال ببطء: «حسناً، إذا لم يكن هذا لويس.. فهي مفاجأة..».

ثقافته في كلية «إيتون»، أنشأته بطريقة تجعله شاعراً بأهميته على الدوام، وهكذا كانت لهجة السير إدوارد نيوبري الملوكية مزيجاً من التهكم والتنازل



جعل ابنته تجفل. لكن لويس لم يجفل وإنما ابتسم ساخراً بجفاء، وهو يقول موافقاً: «إنها مفاجأة حقاً، أن نلتقي بعد سبعة أعوام، وفي الوقت نفسه والمكان نفسه».

أضاف أبوها بجفاء: «لا بد أنه القدر».

والقدر على وشك تغطية ذلك.. بهذا أخذت كارولين تفكر.

تابع لويس قائلاً: «أرى أنك محظوظ هذه الليلة، فقد أفرغت صندوق مدير اللعبة، أليس كذلك؟».

ـ ليس تماماً، لكنني سأتمكن من ذلك.

بدا صوت أبيها، فجأة، منتعشاً نشيطاً. فاستدارت كارولين بين ذراعي لويس لترى بنفسها تألق عيني أبيها، لكنها رأت أيضاً الاعتداد الصبياني بالنفس وهو ينظر إلى وجهها. كان يعلم جيداً مقدار خذلانه لها هذه الليلة، لكن التمرد كان يبدو عليه.

وهذا ما جعل قلبها يتحطم يأساً.

سأله لويس: «كم استطعت أن تربح حتى الآن؟».

لكن السير إدوارد لم يهتم حتى بإلقاء نظرة على أرباحه، فقال: «تعلم أن عدّ الأرباح يجلب النحس، يا لويس».

ـ إذا كنت تشعر بأنك محظوظ حقاً، ما رأيك في اللعب معي؟ فتضع جميع ربحك في دورة العجلة التالية، فإذا أنت ربحت، فسأضاعف المبلغ ثم ألاعبك بالمبلغ كله في «البوكر». هل يعجبك ذلك؟

أضاف ذلك يستحثه، متجاهلاً شهقة احتجاج كارولين.

بدا الفضول على المستمعين، وجمدت كارولين مكانها. هل يسمّي لويس هذا (إيقاف عن اللعب؟). لم تشعر قط بمثل هذه الخيانة، بما في ذلك آخر مرة خان فيها لويس ثقتها به.

ـ لا.

همست بذلك وعيناها تتوسلان إلى أبيها بألاّ يطيع لويس. لكنه لم

بعد يشعر حتى بوجودها، وكانت تعلم بالضبط ما كان يقوم به. فقد كان مشغولاً بعدّ أرباحه في ذهنه ثم مضاعفتها مرة بعد أخرى، ليلعب مع لويس بلعبة تدرك هي مقدار مهارة لويس فيها.

- ولِمَ لا؟

لقد قبل التحدي. وعندما حدقت ابنته فيه بذعر، استدار إلى مدير اللعبة قائلاً ببرودة: «فلنبدأ».

وعادت العجلة إلى الدوران.

وكانت كارولين تشعر بلويس خلفها وهو يراقب الأمور من فوق رأسها. بينما وقف أبوها أمامها، هادئاً ظاهرياً، وقد بدا عليه عدم الاكتراث البالغ بالنتيجة النهائية، مع أنّ حياتهما متعلقة بذلك.. بدا كأن كل الموجودين في الكازينو قد وقفوا حول المائدة جامدين حابسي الأنفاس يراقبون نتيجة اللعبة. لم يكن بينهم شخص يعتقد بأن بإمكان السير إدوارد أن يربح إذا راهن على اللون الأحمر نفسه للمرة الرابعة. خصوصاً كارولين التي قالت للويس وهي تخلص نفسها منه: «لن أصفح عنك قط لهذا الأمر».

تركها تذهب، لكنه بقي واقفاً خلفها مباشرة. ثم وقفا، كالآخرين، يراقبان العجلة وهي تتباطأ، ناظرين إلى تلك الكرة التعسة وهي تتقافز من لون إلى آخر.

وكان هذا أسوأ عذاب عاشته. أدركت أنه ما كان لهما أن يحضرا إلى هنا.. لقد دأبت على القول لأبيها مرة بعد أخرى بأن «ماربيا» هي آخر مكان على الأرض عليهما أن يبحثا فيه عن الخلاص، لكنه لم يصغ إليها. كان يائساً، والرجل اليائس يقوم بأعمال طائشة، وكل ما قاله لها: «ليس أمامنا خيار! فالشركة المموّلة التي اشترت كل ديوننا، مركزها في ماربيا، وقد رفضوا الحديث معنا إلا إذا ذهبنا بنفسنا. لذا علينا الذهاب إلى هناك، كارولين».



- وديونك في القمار؟ أتراهم وضعوا أيديهم الجشعة على كل تلك أيضاً؟

احمر وجهه حينذاك لشعوره بالذنب، وقال بشراسة كعادته كلما واجهه أحدهم بعدم كفاءته: «هل تريدين المساعدة في وضع حد لهذا المأزق الذي نحن فيه أم لا؟».

وكانت تريد ذلك ولكن ليس بهذه الطريقة، ليس بالمقامرة بكل ما يملكونه بوضعه على عجلة الروليت الغبية.

عاد رأسها يدور، وتسرب الدم من رأسها ببطء وكأن تلك العجلة المتباطئة تعتصره، ثم إذا بذلك يتوقف فجأة. وساد القاعة صمت شامل، حتى قال السير إدوارد، بهدوء بالغ: «إنها لي، كما أظن».

ودون أن تنطق كارولين بحرف، سارت مبتعدة تاركة الشجار يتفجر خلفها.

كم تراه ربح؟ لم تعلم. متى سيلاعب لويس؟ لم تكن تهتم، حتى الآن، بالنسبة إليها هذا الأمر التعيس كله قد انتهى حقاً. لقد نالت ما فيه الكفاية وأكثر، ولن تضع قدمها في مكان كهذا قط، بعد الآن.

وليس هذا فحسب إذ كانت تشعر بالاشمئزاز من نفسها لاقتناعها بالمجيء إلى هنا. كان عليها أن تعلم أنه لا يستطيع الوفاء بالوعد. كان عليها أن تعلم أنه لا يهتم حقاً لما يحدث لهما ما دام يحصل على متعته.

انغلق باب الكازينو الدوّار خلفها، أما هي فسارت نحو السلم بعينين متألقتين وفم متوتر وجسم متخشّب ناوية الذهاب إلى جناحهما لكنها أدركت فجأة أن ليس بإمكانها أن تفعل هذا، لا تستطيع أن تعود إلى هناك لتنتظر الحلقة الأخيرة في تنقيب أبيها عن دمارهما الكلي، ودون تفكير، وجدت قدميها تتجهان، عبر الردهة، نحو الباب المواجه للكازينو.

توقعت أن تجد غرفة بركة السباحة مقفلة في هذا الوقت من الليل، لكنها لم تكن كذلك. رغم أن الأضواء كانت خفيفة إلى أدنى حد، وهكذا

كانت البركة نفسها مضاءة، ولا أحد بجانبها.

خلعت حذاءها ثم ثوبها، ووضعتهما على كرسي قريب، ثم غاصت في المياه.

لماذا فعلت هذا؟ لا تدري. فهي لم تهتم بأنها غاصت مرتدية ملابسها الداخلية وجوربيها. . أخذت فقط تغوص في الماء وتعلو كشخص يريد أن يفوز بميدالية.

كانت تؤدي دورتها الأخيرة في السباحة عندما رأت لويس جالساً على كرسي بجانب الكرسي الذي وضعت عليه ثوبها، نظرت إليه ببرودة بالغة وهي تتابع السباحة. وكان موجوداً بعدما قامت بجولتها السادسة في الماء، وبقي حتى جولتها الثامنة، ثم العاشرة ولكن التعب حل بها أخيراً وأخذت تلهث فتوقفت لتتنفس. وضعت ذراعيها متصالبتين على حافة البركة، ثم أسندت جبينها عليهما وبقيت بهذا الشكل حتى خفّ لهاثها.

سألها بهدوء: «هل يشعرك هذا بالتحسن؟».

ـ لا.

أجابت بذلك، لترفع وجهها أخيراً وتنظر إليه: «وهل تشعر أنت بذلك إذ تتفرج عليّ؟».

فأجاب ببساطة: «إنك ترتدين من الملابس أكثر مما ترتديه معظم النساء اللواتي يسبحن في هذه البركة».

ـ لكن السيد المهذب ينسحب بأدب ما إن يرى الفرق.

ـ ونحن، كلانا يعلم أنني لست سيداً مهذباً.

وابتسم.

أتراها استدرجته للاعتراف بذلك؟ نعم. لقد فعلت هذا. وسرّها أن تجعل لويس يعترف بحقيقته.

ـ أين أبي؟

ـ يعدّ أرباحه، كما أتصوّر.



وهز كتفيه بعدم اكتراث.

ـ هل أنت مستعدة للخروج من الماء، أم تُراك تريدين مني أن أخلع ملابسي وأنضم إليك؟

ـ بل سأخرج.

قررت ذلك على الفور، حتى دون أن تفكر في أن قوله هذا قد يكون خداعاً، خبرتها السابقة بهذا الرجل الخطر، جعلتها واثقة من أنه لن يتوانى عن النزول إلى المسبح لينضم إليها.

ولم تكن تريد بأي شكل، أن ترى لويس ڤازكيز على مقربة منها. أخذت تفكر بذلك عابسة وهي تسبح مقتربة من درجات الصعود.

وعندما نهضت واقفة، كان لويس ينتظرها بمنشفة كبيرة بيضاء. أما من أين أتى بها فهذا ما لم تعرفه كارولين. ووجدت مرة أخرى أنها لا تهتم بذلك، بدا أن عقلها قد أضرب عن الاهتمام بشيء.

وهكذا صعدت الدرجات وتناولت المنشفة منه بهدوء وشكرته بأدب وبنبرة لا تعبّر عن شيء.

لاحظ غياب المشاعر عن وجهها، فقال: «إنك هادئة جداً».

لفت جسدها بالمنشفة، قائلة: «أنا أكرهك وأحتقرك، هل هذا ينفع؟».

ثم انحنت تعصر شعرها.

قال عابساً: «هذه بداية. هل تريدين منشفة أخرى لتجفيف شعرك؟».

أخذت تمشط بأصابعها خصلات شعرها، ثم ألقت رأسها إلى أعلى تبعد خصلة شعر عن وجهها. كانت السباحة قد محت معظم زينة وجهها ولم يبق منها إلا الكحل حول عينيها فبدتا وكأنهما ملوثتان بالسخام في وجهها الناصع البياض.

قالت: «لا أريد منك شيئاً يا لويس، لأن فكرتك عن العطاء هي أن تقطع اليد التي تمتد إليك».

فقال داساً يديه في جيبي بنطلونه: «آه.. هل اليد التي قطعتها هي يدك؟».

لم تشأ الحديث عن ذلك، وهكذا ابتعدت عنه لتأخذ ثوبها عن الكرسي، ثم اتجهت نحو الباب، قائلة ببرودة: «أنا ذاهبة إلى غرفتي. وداعاً يا لويس. وددت لو أقول إن رؤيتك مرة أخرى شيء حسن، ولكنه سيكون كذباً، ولهذا لن أزعج نفسي...».

قال متكاسلاً: «ألم تنسي شيئاً؟».

وقفت ثم التفتت عابسة حائرة.. فما زال واقفاً مكانه طويلاً رشيقاً فائق الوسامة بسمرته الجذابة التي تجعل قلب أي فتاة يهفو إليه.

وهفا قلب كارولين إليه، هي أيضاً. فاحتقرت نفسها لتأثرها به وهي التي تعرف حقيقته.

ـ ما زال حذاؤك ومحفظتك هنا.

أشار إليهما بلطف، ثم سار ليحضرهما لها. سبق أن ألقت الكيس على الكرسي ورفست حذاءها تحته بعدم اكتراث.

ناولها حذاءها ممسكاً برباطيه، فتناولته متوترة الشفتين ولكن عندما أرادت أن تأخذ محفظتها، وضعها لويس في جيب سترته. فأمرته بقولها: «أعدها إلي، أرجوك».

لكنه ابتسم لها فقط بكسل وسخرية: «كأنك، بهذه اللهجة المتكلفة، مديرة مدرستي».

ـ وما أدراك بذلك؟ ألم تخبرني يوماً أنك لم تذهب إلى المدرسة إلا نادراً؟

ضحك برقة راضياً، ولكن كان في لهجته شيء ما وهو يضيف قائلاً: «آه، عرفت بعض النساء من ذوات الظهور المتصلبة والأعين الباردة».

ذكرها هذا على الفور بكل المؤسسات الخيرية التي عاش فيها في طفولته. وتصورت فجأة صبياً أسبانياً صغيراً وحيداً، أسود الشعر والعينين، تعلّم، حتى وهو في التاسعة، كيف يعتمد على نفسه لكي يعيش.



كم من الأسرار تبادلاها في ذلك الصيف الحار منذ سبعة أعوام؟ وهل كل ما أخبرها به، كان حقيقياً؟ وكم من الكلمات استخدم ليكسب عطفها في الوقت الذي كان فيه يسلب أباها أمواله باللعب معه؟

ـ لماذا هذا العبوس؟

سألها ذلك بصوت أبح وهو يدنو منها بشكل مقلق. فطرفت بجفنيها ورفعت بصرها إليه، فوجدته مستنداً إلى الباب. كانت نيته في أعاقتها عن الخروج واضحة وهذا دفع كارولين إلى توخّي الحذر.

ـ أريد المحفظة من فضلك، لويس.

طلبت ذلك بإلحاح، متجاهلة سؤاله ومدّت إليه يدها التي كان حذاؤها متدلياً من أصابعها. فتمتم يقول، متجاهلاً بدوره لهجتها الآمرة ويدها الممدودة: «أتعلمين أن عينيك تصبحان رماديتين عندما تغضبين؟».

سرت الإثارة في دمها، فكررت قولها: «محفظتي، من فضلك».

منحها ابتسامة حركت مشاعرها.

ـ وفمك يتوتر، و..

فقالت بحدة: «كفّ عن هذه الحركات الصبيانية».

ـ ومثيرة..

أطلقت زفرة مقصوداً بها تبديد ضيقها، لكنها بدت فقط مشحونة بالمشاعر. وبدأت أصابعها الممدودة إليه ترتجف فسارعت تسوّي بها المنشفة الملتفة حولها، وقالت: «سأصاب بالبرد إن بقيت هنا واقفة بهذا الشكل».

وأخذت ترتجف فعلاً، رافضة التفكير في ما إذا كان السبب البرد أو شيء آخر. وهذا السبب مهما كان، شغله عن إغاظته لها، فاستقام في وقفته بسرعة وخلع سترته ووضعها حول كتفيها المبللتين.

شهامته الغريبة هذه أوهنت دفاعاتها، فاغرورقت عيناها بالدموع وقالت ضارعة: «لا تشاركه اللعب لويس».

قال وهو يأخذ منها ثوبها وحذاءها: «أعطيني هذا وأدخلي ذراعيك في

الكمين وانزعي المنشفة المبتلة هذه..».

هذا يعني أنه يرفض الإصغاء إليها، وتملكها اليأس وأطاعته دون تفكير، دافعة ذراعيها في كمي سترته، شعرت بدفء البطانة الحريرية على جلدها الرطب البارد، وغمرتها رائحته فجأة. وقالت بصوت مختنق: «ظننتك ستساعدني، ولكن ما فعلته هو جعل الأمور أسوأ فأسوأ».

ـ الجنون يتجاوب فقط مع جنون أشدّ منه. الطريقة الوحيدة لمنعه الليلة من الاستمرار في المقامرة، هي إعطاؤه سبباً جيداً للتوقف، وهكذا سنلعب خلال ساعة، بعيداً عن الفندق، لأنني لست...

قاطعته كارولين مادّة يديها تضغط بهما على صدره بضراعة وألم: «أرجوك لا تفعل هذا! كيف يمكنك أن تفعل هذا بي مرة أخرى؟».

لكن لويس لم يصغ إليها، بل كان يحدّق في يديها الضاغطتين على صدره، ثم مدّ يديه يغطي بهما يديها، وإذا بها تشعر فجأة بحرارة جسده وقوة عضلاته وخفقات قلبه القوية تحت ذلك كله.

هذا القلب الذي كانت تعلم كيف كان يخرج عن طوره عندما يضمها إليه.

جف حلقها. فقد عادت المشاعر تحتدم بينهما. وتحركت يداه، تاركة يديها، ليشدّها إليه. وتلامس جسداهما، وصدرت عن كارولين شهقة.

ـ لا..

تأوهت عندما جرؤت على النظر إلى عينيه الملتهبتين، لكنه لم يجب. لقد فات الأوان على كل حال، لأنه أخذ الآن يعانقها.. يعانقها كعاشق.. يعانقها بعنف وعمق كادت تتحطم معه.

فكرت والدموع في عينيها، في أنها افتقدته حقاً.. افتقدت مقدار تأثر أحدهما في الآخر.. وتحركت أصابعها من فوق قميصه إلى وجهه تتلمس تقاطيعه. فتجاوب هو بزفرة، وشدّد من احتضانها بشكل انطلقت معه حواسها.



كانت تعلم أن هذا جنون، لكنها في هذه اللحظات القصيرة، أدركت أن لويس هو لها، وأنها تمتلكه. فإذا قالت له: مت لأجلي، يا لويس، فسيموت.

ولكن الأهم والأغرب أنها هي أيضاً مستعدة للموت من أجله.

ـ لويس..

همست بذلك في أذنه، وكان لهذا الصوت الهامس الرقيق تأثير بالغ فيه.

وسخرت من نفسها.. ذلك أن لويس هو نقطة ضعفها، كما القمار نقطة ضعف أبيها. فالإدمان على شيء يدوم العمر بطوله. قد ينقطع الشخص سنوات عما أدمن عليه ولكن هذا سرعان ما يتفجر لدى أقل رشفة. وكانت هي ترشف الآن ما أدمنت عليه..

لقد أيقظ عناقه في أعماقها حباً هجع طويلاً في عقلها الباطني فهو أول شخص أحبته بل هو الأول والأخير.. الرجل الذي لم تحبّ سواه، الرجل القادر على سلبها روحها إذا أراد.. إنه حبيبها الوحيد.. ولكنها تمنت ألا يشعر بما تشعر به.. وألا يدرك أن تجاوبها القوي هذا دليل على أنه الرجل الوحيد الذي أحبته.

نسيت في خضم هذه المشاعر أنه الرجل الذي دمّرها ذات يوم، وغدر بها بشكل لم تستطع الشفاء منه. لم يعد يهمها أبوها، وما سيقدم عليه، ولم يعد يهمها أن لويس قد يغدر بها مرة أخرى.

كانت، في الواقع، من الضياع بحيث لم تفهم معنى القرع على باب قاعة البركة الذي تصاعد، حتى استقام لويس فجأة، ثم سار، وما زال يحتضنها، نحو الباب يشقه.

أخذت تشعر بالذعر من قوة العاطفة والمشاعر التي تجمع بينهما. سبع سنوات مرت على فراقهما وهاهما يلتقيان ويتدفقان شوقاً إلى بعضهما بعضاً وكأنهما جائعان وقعا على وليمة.

بدا لها هذا عملاً من البذاءة والعار، وهذا ما جعلها تدس وجهها في كتف لويس خجلاً، داعية إلى الله ألا يكون الطارق أباها.

قال صوت لم تسمعه من قبل بلهجة أمريكية كلويس: «كل شيء جاهز، أمامك نصف ساعة».

ـ لا بأس.

قال لويس ذلك بخشونة ثم عاد يغلق الباب بسرعة، ثم أبعدها عنه بحزم صدمها.

لم تدرك ما حدث إلا بعد لحظات. ولكن ما هي إلا نظرة واحدة إلى وجهه الجامد البارد، حتى أدركت أن الرجل المحموم العواطف الذي كانت تعانقه، قد عاد فجأة عدوّها.

سألته متوترة: «ما هو الجاهز؟».

فأجاب: «وماذا تظنين؟».

أدركت أنه يعني لعبه مع أبيها، حتى بعدما عانقها بذاك الشغف، ما زال يريد أن يلعب معه.

ـ خذي..

وانحنى يلتقط ثوبها الذي سقط من يدها.

ـ ارتدي هذا، فقد جفّ جسدك. فأمامنا عمل ولا يمكنك الخروج من هنا بهذا الشكل.

عاد يضع سترته على كتفيه العريضتين غير عابىء بأحاسيسها وهي تقف أمامه شاعرة بنفسها ذليلة رخيصة.

بدلاً من تلك العواطف المحمومة، وقفت الآن وقد تملكتها برودة الثلج لشدة الرعب، صعد الغثيان إلى حلقها، ما جعلها ترغم نفسها على ابتلاع ريقها عدة مرات قبل أن تستطيع الكلام.

ـ أكرهك.

همست بذلك، فكان جوابه: «لا أظنك تكرهينني بالقدر الذي



تريدين».

شعرت بنفسها تتحطم، لأن ما قاله حقيقة صارخة.

وقف ينتظر بينما أخذت هي تسوي ثوبها. وكان التوتر بينهما مرعباً، لم يحاول أي منهما أن ينظر في عيني الآخر. لم يحاول أي منهما الكلام بعد ما قالاه أخيراً.

عندما وقفت أخيراً جامدة، ما يعني أنها أنهت كل ما عليها عمله في هذه الظروف، فتح هو الباب، ثم وقف جانباً متجهم الوجه لكي تمرّ أمامه إلى ردهة الطابق السفلي.

كان الغريب الذي سبق وصادفته في المصعد واقفاً يتحدث إلى أحد المستخدمين، وعندما ظهرا رفع بصره إليهما ثم انتبه حالاً.

لم تلحظه كارولين، فقد كانت مشغولة بمقاومة الشعور الذي تملكها عندما وضع لويس يده على ظهرها وهو يرافقها إلى السلم.

لم تشأ أن يلمسها الآن ولم تشأ أن يكون لويس بجانبها، كانت قامتها منتصبة ورأسها عالياً. لكن عينيها كانتا لا تريان، وفي داخلها كانت تشعر بالموت.

وفي اللحظة التي وصلا فيها إلى الردهة الرئيسية العليا، سارت مبتعدة عنه.

ـ إلى أين تذهبين؟

سارت خطوتين ثم وقفت دون أن تلتفت.

ـ إذا كنت تريد تدمير أبي للمرة الثانية، يمكنك ذلك لأنني لا أستطيع منعك، ولكن ليس عليّ أن أتفرّج عليك.

فعاد يسير نحوها: «لكننا لم ننته بعد».

ومد يده يمسك بيدها وسار بها بصمت نحو باب مكتوب عليه (خاص) انفتح بشكل سحري عندما اقتربا منه.

قطبت جبينها إذ لم تفهم ما يجري، ووجدت نفسها داخل ردهة أخرى

مبلطة برخام أسود وتبني اللون، ثم قادها إلى باب آخر فتحه بيده هذه المرة، مشيراً إليها بأن تتقدمه إلى الداخل، ثم أغلق الباب خلفهما بهدوء.

كان هذا مكتباً، كما رأت كارولين. . مكتباً بالغ الأناقة باللونين الأسود والتبني.

ـ ما هذا المكان؟

فسار متجهاً إلى المكتب حيث جلس خلفه وانحنى يفتح درجاً فيه.

ـ إنه مكتبي.

فأخذت تنظر في أنحاء الغرفة: «أتعني. . أنك تعمل هنا؟».

فأجاب بهدوء: «أعمل هنا وأعيش هنا. .».

ووضع ملفاً جلدياً ثقيلاً على المكتب أمامه: «فهذا فندقي، يا كارولين».

***



## ٣ ـ امرأة بين نارين

فندقه. . ؟ وهزت كارولين رأسها، ثم قالت:

ـ ولكن هذا أحد مجموعة فنادق «الملاك».

و«مجموعة الملاك» ضخمة. لم تشتهر لما تملكه من فنادق فخمة في أنحاء العالم وحسب، بل لأنها تملك مصالح أكثر أهمية على شكل صفقات واتفاقيات دولية.

رفع رأسه ونظر إليها، فعمّ قلبها الذعر، ذلك أن «مجموعة الملاك» اقتنت حديثاً مصرفاً في لندن تتعامل أسرة نيوبري معه كثيراً. . أخيراً ظهرت لها الحقيقة، فهمست: «آه، يا إلهي، هل أنت الذي استدعانا إلى ماربيا، من أجل الديون».

لم يجب، ولم يكن بحاجة إلى ذلك فالإثبات مكتوب على وجهه. ولم تستطع هي سوى الوقوف لترى كل صورة نسجتها في خيالها عن لويس فازكيز، تتصدع ببطء ثم تتحطم أمامها حتى لم تعد ترى فيه لويس الحبيب أو حتى لويس المخادع القاسي الذي احتال ليسلب أباها عشرات الألوف من الجنيهات.

همست بضعف: «ما الذي تريده؟».

أخذت تفكر في أن لويس الحاذق المتمرس البارد كالثلج قد ارتفع عالياً في العالم، أما هي وأبوها فانحدرا إلى القاع.

ـ أريد منك أن تجلسي فليس لدينا وقت كافٍ، والآن بعدما فهمت سبب وجودك هنا، فلنبدأ العمل. .

العمل. غمرتها هذه الكلمة بموجة باردة. وعندما تقدمت نحوه على ساقين مرتجفتين لتجلس على كرسي أمامه، جلس لويس وفتح الملف، ثم أخرج منه ورقة دفعها باتجاهها.

ـ أخبريني إذا كنت توافقين على ما هو مكتوب هنا.

جاهدت لتركز ذهنها فقلبها يكاد يتوقف لثقل ما ستراه أمامها.. مدت يداً مرتجفة تجذب الورقة ترغم نفسها على القراءة.

كانت قائمة دقيقة للغاية تحصي كل قرش يدينان به.. إضافة إلى مبالغ كثيرة، كثيرة لا تعرفها.. لكنها لا تشك في مصداقيتها لأنها ترى أسماء كل الأماكن التي كان أبوها يزورها في لندن، مكتوبة أمامها.

الرقم الأخير كان مفزعاً إلى حد أنها اقشعرت عند رؤيته. وقالت بصوت خافت: «هل لي بجرعة ماء، من فضلك؟».

نهض لويس بصمت، ثم أحضر لها كأس ماء فيه ثلج وضعه أمامها، ثم عاد إلى كرسيه. أما هي فرفعت الكوب ترشف منه، وتقول: «لا يمكننا أن ندفع لك دينك هذا.. يا لويس.. ليس كله على كل حال».

ـ أعلم هذا.

رشفت مزيداً من الماء قبل أن تستطيع المتابعة: «إذا رفضت ملاعبته الليلة، فسيكفي المال الذي ربحه في الكازينو، والمبلغ الذي أملكه لسداد قسم صغير من هذا».

ولكن ليس كله.. أضافت ذلك لنفسها بصمت وكآبة.

ـ اللعبة المخطط لها، وهذه الديون، موضوعان منفصلان، وأنا لا أمزج أبداً العمل بالمتعة، كارولين. هل تفهمينني؟

تفهم؟ لا، لم تفهم. وصرخت وهي تلقي بالقائمة عليه.

ـ ولكن لدينا وسائل نرد بها قسماً من هذا المبلغ، يا لويس. وأنت تريد أن تلعب القمار من أجل متعة جهنمية.. فأين حس العمل في هذا؟

لم يتنازل لويس بالنظر إلى القائمة التي انزلقت على المكتب لتستقر في



حجره بل كان وجهه جامداً وهو يسألها: «من أين حصلت على ذلك المبلغ الخاص بك؟».

ـ لا شأن لك بهذا.

تمتمت بذلك ثم وقفت وسارت مبتعدة عن المكتب.

ـ إذا كنت تأخذين من شخص لتدفعي لشخص آخر، فهذا يجعل مجموع الدين أسوأ وليس أفضل.

قالت كارهة: «ورثت مالاً عن أمي».

ـ لا، لم ترثي.

ـ ماذا؟

والتفتت إليه، ورأت في عينيه علمه بالحقيقة.

ـ أموال أمك ذهبت منذ سنوات سداداً لدين، وبعد ذلك أمضيت أنت الأعوام القليلة التالية في بيع أملاك الأسرة قسماً بعد آخر، حتى لم يتبق لديكم سوى القليل مما يستحق البيع. ثم جاءت فترة هادئة تحسن فيها سلوك أبيك مدة سنتين.. أو هذا ما اعتقدته أنت، وعندما ابتدأ كل شيء مرة أخرى، عدت لفرز قطع أرض واقعة في أطراف مزرعة الأسرة بعتها لرجال أعمال أثرياء كانوا يبحثون عن أماكن يبنون عليها بيوتاً للمتقاعدين. لكن المجلس التشريعي منع ذلك أخيراً محافظة على التراث الريفي أو شيء كهذا، فماذا بقي لديك للبيع، كارولين؟ بيت الأجداد، وهو مرهون؟ أم ما بقي من ميراث الأسرة.. الذي أصبح ملك المصرف، على الورق على الأقل؟ أم ربما تفكرين في سداد ديني من العمولة التافهة التي تتقاضينها من مصممي «الديكور» الداخلي في لندن، الذين يطلبون معرفتك بالفنون الجمالية وتذوقها للبحث عن قطع فنية يزينون بها بيوت زبائنهم الأغنياء.

شعرت وكأنها سحقت على الأرض بمطرقة خشبية، لم تشعر في حياتها قط بمثل هذا الهوان.

ـ وماذا بعد ذلك، يا كارولين؟

وزاد في سحقها بصوته القاسي.

ـ ماذا بقي لديك ليرضي أي مصرف له عليك دين بحجم ديونك؟ ربما نفسك؟ هل تفكرين في عرض نفسك كمومس لمن يدفع أكثر؟ وبذلك يستمر «بابا» في مزاولة هوايته المدمن عليها لأنه لا يستطيع منع نفسه؟.

ـ كفى! أقفل فمك.. أقفل فمك!

واختنق صوتها ولم تستطع أن تسمع المزيد، وأخذ وجهها يشحب، ومعنوياتها تتحطم وراحت تحدق إليه ببلادة وعدم فهم لسبب قسوته هذه.

ـ ما أدراك بكل هذا؟ من أين حصلت على معلوماتك؟ منذ متى وأنت تجمع هذا.. الملف عني؟

وأشارت بيد مرتجفة إلى الملف الذي أمامه.

ـ يمكن شراء المعلومات في أي وقت وأي مكان ما دام بالإمكان دفع النقود ثمناً لذلك.

ـ وهل يعطيك هذا الحق في التجسس على حياتي؟ لماذا يا لويس؟ لماذا؟ ما الذي أخطأت به بحقك وجعلك تلاحقني بهذا الشكل؟ أنت الذي استخدمتني وجعلتني أتعلق بك يوماً بعد يوم في الوقت الذي كنت فيه تعمل على المقامرة مع أبي. هل تذكر؟

لكم نضح صوتها بالألم.

قال: «لا أريد الحديث عن ذلك».

ثم وقف فجأة. متوتراً.. مثلها. غاضباً.. مثلها. ومليئاً بالمرارة.. مثلها.

قالت بازدراء بالغ: «آه! عندما وصل الأمر إلى أخطائك، لم تعد تريد التحدث عنها، لكنك سجّلت بكل سرور أخطائي وعيوبي.. حتى جعلك حقدك تدعوني مومساً».

ـ أنا جعلت هذه الصفة خياراً لك وليس حقيقة واقعة.

قال ذلك بصحح كلامها لكن الشحوب كسا وجهه فعلمت كارولين



أنها مست وتراً حساساً في مكان ما من روحه القاسية.

ـ كلانا يعلم من منا باع نفسه مقابل الذهب، لويس. نعلم أنك سعيت إليّ لأتعلّق بك حتى أنسى أبي فلا أراقبه!

ـ حسناً، دعينا ننه هذا الأمر.

واستدار حول المكتب متجهاً نحوها، أرادت أن تتراجع، لكنها لم تستطع لأنه وقف أمامها والوعيد على ملامحه.

ـ تظنين أنني بعت نفسي مقابل الذهب منذ سبع سنوات.

أدركت كارولين أنها مست هذا الوتر الحساس فيه، إذ تابع يقول: «فلتر إذن من منّا يمكنه الغوص في الأعماق، هذه المرة. ها هي الإتفاقية، كارولين، إما أن تأخذيها أو تدعيها، ابقي عندي الليلة ولك ألا ألعب مع أبيك».

تبقى عنده؟ إنه محظوظ لأنها لم تصفعه! وقالت باشمئزاز: «حسناً، إن لم يكن هذا هو مزج المتعة بالعمل، فماذا يكون؟».

ـ لا، لا بل هذا يدعى مزج المتعة بالمتعة.

كان يبتسم، هذا الشيطان الأسود القلب.

ـ إذهب إلى الجحيم.

وارتدّت على عقبيها تبغي الخروج بأسرع ما تستطيع.

فقال لها بسرعة: «ما إن تفتحي الباب، حتى تبطل هذه الإتفاقية».

جمدت خطواتها، لكن خفقان قلبها استمر مندفعاً! ثم استدارت تواجهه. ولم يكن لويس بحاجة إلى الكلام لكي يعلم بماذا كانت تفكر. وقال ساخراً يهز كتفيه: «لكل شخص ثمن، يا كارولين، وأنا أريد أن أتأكد فقط من ثمنك. هذا كل شيء..».

فقالت بصوت خافت: «لن أصفح عنك قط لهذا».

فسألها بنعومة: «هل تحاولين، بهذا القول، أن تخبريني بأن البقاء معي يؤلمك؟».

استحالت البرودة في جسدها إلى حرارة. . حرارة وضيق. بعدما استجاب له قلبها قرب بركة السباحة بتلك القوة، لم تعد تستطيع الادعاء بأن البقاء معه يزعجها.

ومض ضوء فجأة على جهاز التخاطب الداخلي على المكتب، فأنقذ كارولين من اضطرارها إلى اتخاذ أسوأ قرار في حياتها.

عاد لويس إلى مكتبه وجلس على كرسيه ثم ضغط زر الجهاز، مجيباً: «نعم؟».

فجاء الصوت العميق نفسه الذي سمعته من باب قاعة بركة السباحة: «حان وقت ذهابنا».

ضاقت عيناه وهو ينظر إلى كارولين مفكراً، فجأة أخذت ترتعش فأسرعت تلتمس الجلوس على أقرب كرسي إليها، تعثرت وهي تتجه نحوها. وأثناء جلوسها كان هو يقول: «بعد دقيقتين، يا ڤيتو. .».

ثم قطع الاتصال.

الأحداث والصدمات التي توالت عليها والقلق البالغ، حطمها في داخلها، فأخذت تحدق، عاجزة، في لويس، وأدركت أنه كان ينتظر منها النطق بالموافقة.

حوّلت نظراتها بعيداً، شاعرة بطعنة ألم في صدرها لأنها لم تستطع احتمال النظر إليه والنطق بكلمة الموافقة.

عند ذلك فقط رأتها. . فشهقت قائلة: «آه، يا إلهي».

فقد لاحظت للتوّ صورة العقرب الزاحف على الجدار خلفه. كانت الصورة نابضة بالحياة إلى حد جعلها تتراجع إلى الخلف في كرسيها متجنبة إياه، بحركة غريزية.

ـ لويس. . هذا شيء شنيع.

قال باسماً: «لكنه فعّال».

حينئذٍ تذكرت أنه أخبرها يوماً بأن أول عمل قام به هو امتلاكه نادياً



ليلياً في نيويورك يسمّى ـ كما قال ساخراً ـ «العقرب» وهو نادٍ اشتراه من صديق قديم أرغمه تدهور صحته على التماس حياة أهدأ، وفي غضون سنتين، باع لويس النادي بمبلغ ساعده على اتخاذ وجهة جديدة في الحياة. وتذكرت عندما قال لها راضياً، حينذاك: «ومنذ ذلك الحين، لم أشعر بحاجة إلى النظر إلى الخلف».

ويبدو أنه أبقى على هذه العقرب كذكرى حسنة ولحنين ولكن أيمكن أن يكون سبب ذلك شيء غير الحنين؟ هل هو تحذير أن لهذا الرجل الأسمر المجرّب جانباً آخر في شخصيته هو أشبه بسم العقرب؟

عادت تنظر إلى لويس فرأته يرقبها بالتواء ساخر في فمه وكأنه يعرف ما تفكر فيه ويسره ذلك، فتمتمت وهي ترتجف: «العقرب يلسع ضحاياه بذكاء واستقامة، يا لويس. وما تعرضه عليّ لا يدلّ على ذكاء أو استقامة».

ـ وما أهمية الذكاء والاستقامة لشخصين تجمعهما كل هذه المشاعر القوية المحتدمة.

وابتسم وهو يغلق الملف ويعيده إلى الدرج ثم يقف قائلاً: «حسناً. . فلنخرج».

فلنخرج؟ فقالت باحتجاج وحذر: «لكنني لم أوافق بعد على عرضك».

قال وهو يتقدم نحوها: «قرري فيما بعد، ليس لدينا وقت حالياً للكلام في هذا الأمر».

ووجدته يرفعها بحزم لتقف. في هذه اللحظة أدركت أن خياراتها تضاءلت وأن الوقت انتهى، وما هي إلا ثوان حتى رافقها بصمت من الغرفة إلى الخارج حيث العتمة الهادئة الدافئة.

كانت سيارة (بي. أم. دبليو) فخمة تهدر أمام المدخل. فتح لويس الباب الخلفي ثم ساعدها على الدخول قبل أن يدور ويصعد من الناحية الأخرى من السيارة. وما إن انغلق الباب حتى تحركت السيارة يقودها رجل كان مختفياً خلف زجاج غير شفّاف.

- إلى أين نذهب؟

- سترين.

كان الوقت متأخراً، ولكن من خلال نافذة السيارة الجانبية، رأت المنتجع حافلاً بالناس المستمتعين بزيارة أحد أماكن ماربيا الأنيقة.

مضت أعوام منذ أن كانت تفعل مثلهم، حين كانت خالية البال. سنوات وسنوات من ضبط النفس ومراقبة أبيها، لأنها كانت تعلم أنّ لا أحد غيرها سيراقبه.

- إنه بخير، فلا تقلقي عليه.

تمتم لويس بذلك وكأنه يقرأ أفكارها.

أطلقت ضحكة هازئة، متى لم تقلق على والدها؟ لقد كان في عنفوانه شاباً ضليعاً منحلاً فلم يغيره الزواج، وإن كانت تظن.. أو ترجو أنه كان مخلصاً لأمها.

لا، حدثت نفسها بحزم بأن أباها لم يكن رجلاً عابثاً، نعم، كان مقامراً محتالاً، لكنه أحب أمها. وعندما ماتت فقط، عادت إليه نقاط ضعفه الماضية ناشداً بذلك نسيانها أو هذا ما كان في البداية، على الأقل. أما الآن..؟ ولم تبحث عن جواب لهذا السؤال، لأنها تعرفه.

أخذت السيارة بالصعود نحو تُيلا ريفية خاصة، ميّزت كارولين المنطقة لأنها تعرف كثيرين ممن يملكون بيوتاً صيفية هنا. كان هذا ملعبها، المكان الذي أمضت فيه عطلاتها الصيفية، لاهية خالية البال، بعيداً عن قيود مدرستها الداخلية. كان لديها أصدقاء هنا بقدر ما كان لديها في وطنها حينذاك. أما الآن فلا تكاد تتذكر واحداً منهم، ولا يمكنها سوى الارتجاف لذكرى زيارتها الأخيرة المشؤومة إلى ماربيا.

انعطفت السيارة فجأة إلى اليمين داخلة من بوابة مفتوحة صعوداً على طريق خاصة نحو تُيلا خاصة ريفية الطراز بُنيت على سهلٍ مستو يمتد يميناً وشمالاً حول مدخل له قنطرة حجرية أدت بهم إلى ساحة.



حالما توقفت السيارة أمام مدخل واسع مهيب، خرج لويس منها ودار ليفتح لها الباب لتنزل.

- ما هذا المكان؟

سألته هذا وهي تنظر إلى الجدران البيضاء المغطاة بالنباتات المتسلقة التي كانت تحيط بهم الآن، ولكن ما جذب انتباهها حقاً كانت السيارات المتوقفة هنا. السيارات تعني الناس، والناس تعني...

هتفت مذعورة عندما أمسك بيدها وأخذها إلى الداخل والجاً المدخل: «لويس ما الذي يجري هنا؟».

قال: «حفلة».

تساءلت كارولين عما إذا فقدت عقلها. ألم يكفه ما أساء إليها في هذه الأمسية حتى يجرها، ببساطة، إلى حفلة.

قالت رافضة، دون أن تتحرك من مكانها: «لا سبيل إلى ذلك، لا أريد الذهاب إلى حفلة. وخصوصاً الذهاب بهذا.. المنظر».

استدار ينظر إليها، وفجأة التهبت عيناه، وقال بصوت أجش: «تبدين مثيرة».

مثيرة؟ وكادت تضحك عليه، ثم قالت متهكمة: «هذه أحسن كذبة كذبتها عليّ حتى الآن. كنت أسبح منذ قليل وشعري أشعث وليس على وجهي أي زينة».

ابتسم قائلاً: «أرى هذا..».

شتتت ابتسامته أفكارها، لأن هذا هو لويس الحقيقي القديم، الرجل الذي اعتاد أن يبتسم لها بهذا الشكل قبل سبع سنوات.. في ذاك الوقت كانت مستعدة لقطع لسان أي شخص يحاول أن يخبرها بأنه كان يستغفلها.

أوهنت هذه الذكريات عزيمتها.. وجعلتها ترغب في التخلي عن الحذر وفي مبادلته ابتسامته.. أرادت أن تعود كارولين القديمة، حين كانت الحياة رائعة وكانت تظن نفسها خالية من كل هموم الحياة.

ارتعشت يدها في يده.. كردة فعل لتمنياتها الخفية. فاشتدت أصابعه على يدها وكأنه ظنها تحاول الهرب فحاول منعها.

ـ لويس..

قالت هذا ضارعة، مستجيبة لتلك اللمحة من ذلك الرجل الذي عرفته.

كانت كمن ينظر إلى نسيج حي يستحيل إلى حجر: «إذا كنت ستبدأين بالتضرع، فلا تفعلي. لقد ابتعدنا كثيراً عن تلك المرحلة التي كان فعلك هذا ينفعك».

متى كانت تلك المرحلة بالضبط؟ لقد أجفلتها هذه الصفعة الكلامية بشكل لم تزعج نفسها بإخفائه. هل كان ذلك حين تعانقا عند بركة السباحة؟ والتوى فمها ساخراً لهذه الفكرة. لأن الرجل الذي عانقها بعاطفة لا مثيل لها، تمالك نفسه بسرعة بالغة وأصبح أقوى من أن يضعف أمام أي شيء.. حتى أمام صوت تلك المرأة الضارعة التي كانت بين ذراعيه حينذاك.

أم في مكتبه عندما ذبحها بكلماته بكل قسوة وكفاءة؟ لم يكن ثمة مجال للضراعة.. لم يكن هناك مجال لأي شيء إلا المرارة والغضب والألم و... وسألته: «أفهم من هذا أن المفاوضات انتهت؟».

أومأ باختصار: «كل ما أريده منك الآن هو مجرد نعم أو لا لما عرضته عليك».

ـ أتعني ابتزازك؟

ـ لا بأس، إبتزازي.

وهز كتفيه دون اكتراث لتلاعبها بالألفاظ.

ثم أخذها إلى ردهة واسعة رخامية بمعظمها.. ثم اجتازا ممرين ضيقين إلى اليسار ثم اليمين، افترضت أنهما يصلان بين جناحي الڤيلا المنفصلين. لكن لويس أخذها إلى إحدى الغرف بعد الممر الرئيسي مباشرة. وسألته: «لمن هذا المنزل؟ أريد فقط أن أعرف إلى ضيافة من سأسيء بقدومي إلى حفلته



بهذا الشكل...».

أجاب: «لا حاجة بك إذن إلى التفكير في ذلك، ما دمت أنا الذي ستسيئين إليه».

إنها ليلة حافلة بالصدمات، وهذه صدمة أخرى. وتذكرت لويس منذ سبع سنوات وهو يقول لها، باسماً، إنه لا يعيش في بيت، وإن البيوت بُنيت من أجل الأسرة وهو بلا أسرة. ويومذاك رأت الكآبة في عينيه وهو يقول ذلك، فأدركت أن الأمر يؤلمه في أعماقه.

هذه الذكرى جلبت معها سؤالاً آخر كاد ينسف عقلها نسفاً، فقالت بصوت مختنق: «هل أنت متزوج الآن؟».

جعلها جوابه الذي كان قهقهة عالية تغفل عما كانت ستواجه.

أخذ قلبها يخفق بعنف دفعها إلى الشعور بالغثيان. كانت غرفة رائعة، مؤثثة بأجمل ما تمخض عنه الذوق الأسباني.

ولكن لم تكن الغرفة هي التي جعلتها تجمد في مكانها، أو حتى تحويل أكثر من عشرين شخصاً انتباههم إليهما.. بل أناقتهم البالغة التي جعلتها تنكمش متراجعة شبه مختفية خلف لويس، وهي ترفع أصابعها بخجل لتلمس خصلات شعرها الجاف.

لا، لم يملأها رعباً إدراكها أنها تبدو وكأن لويس أخرجها للتو من البحر كعروس بحر ليحضرها إلى هنا مباشرة من باب التجديد والطرافة، بل مشهد مائدة خضراء تنتظر جاهزة على بعد ثلاث أقدام من حيث تقف، وبجانبها مدير اللعب الرزين الوجه وهو يعد الفيشات المختلفة الألوان وينظمها في أكداس متراصة على المائدة.

ـ أين هو؟

همست بذلك وقد أدركت حقيقة ما جاء لويس لأجله إلى هنا.

لم يحاول حتى التظاهر بعدم فهمه السؤال، فأجاب: «في إحدى غرف النوم، يرتاح قبل ابتداء السهرة».

ابتداء.. أخذت هذه الكلمة تتأرجح أمام حواسها المتجمدة ولم تكد عيناها الزجاجيتان تريان الناس المنتظرين، رغم وقوفهم بصمت وانتظار، متوقعين أن يقدّمها لويس إليهم.

لكن كارولين لم تشأ أن يقدمها إليهم. فقد شعرت بالغثيان وبتخبط مشاعرها، فهؤلاء ليسوا مقامرين.

حان وقت القرار. الآن، قبل أن يسوء الوضع، ودون أن تفكر في ما هي موشكة على عمله، التفتت إليه بثبات ووقفت أمام لويس مباشرة.

همست مسندة وجهها إلى كتفه: «لا بأس».

سألها مقطباً جبينه بحيرة: «لا بأس بماذا؟».

أجابت وهي تقبض على كمه بأصابعها الباردة بعنف: «لا بأس. أقبل عرضك الآن».

***



## ٤ ـ صفعة الاحتقار

أوحى إليها توتره المفاجيء بأنها استطاعت أن تصدمه. لكنها لم تهتم، لأنها أرادت فقط الخروج من هذه الغرفة وتريد أن يخرج أبوها منها هو أيضاً.

أمسك بكتفيها فجأة بيديه الصلبتين: «كارولين...».

قاطعته بصوت مختنق وفمها يرتجف: «لا! أخبرتني بأن المفاوضات انتهت. أنت أردت جوابي، وهذا هو، فأخرجني من هنا».

تنهد وهو يشدّد قبضتيه ثم تمتم: «يا لك من حمقاء!».

ثم قال لمن حوله ساخراً: «إني أعتذر. سأعالج أمراً مع مرافقتي، أرجو منكم أن تتابعوا استمتاعكم ريثما أذهب معها وأحاول تسوية الأمور بيننا قبل أن أعيدها إلى هنا».

دمدمة الدهشة والذعر المفاجيء التي أجابوه بها نزلت عليها كلسع السوط. وكان لويس يقابل ذلك بابتسامة من خلال أسنانه التي كان يصرف بها، رفع يديه عن كتفيها وأحاطهما، بدلاً من ذلك، بذراعه، ثم سار معها متصلبة ومرتجفة الجسم، خارجاً بها من الباب.

كان غاضباً منها غضباً شديداً لتسببها بذاك المشهد وكانت كارولين تعرف هذا ولكن لم يعد باليد حيلة. فما وافقت عليه كان يقبض على صدرها كقبضة من حديد تمنعها من النطق بكلمة واحدة تدافع بها عن نفسها.

جرّها عابساً وكأنها طفلة يجرها أب حازم، اجتاز بها لويس الردهة إلى الممر المقابل حيث كان هناك باب مفتوح على غرفة فسيحة مفروشة بأناقة

مماثلة للغرفة الأخرى.

إنغلق الباب خلفهما، فوقفت كارولين أمامه عالية الرأس.

لم تستطع رؤية وجهه لأنه كان يدير ظهره إليها، لكنها رأت توتره. وشعرت بالسرور لأنها هزّت اتزان لويس فازكيز الذي لا يهزه شيء.

تحرك أخيراً، مخترقاً الصمت بزفرة قوية قبل أن يخرج من جيب سترته محفظتها، ثم يلقيها على كرسي.

خلع سترته بعد ذلك ووضعها على السرير. كان قميصه الكتاني، من رقة النسيج، ما جعلها ترى سمرة بشرته من خلاله، وكذلك عرض كتفيه وسمرة عنقه فخفق قلبها، وجف حلقها، واشتدت القبضة الفولاذية حول صدرها. واستدار هو ينظر إليها مقوّماً جاعلاً إياها تحبس أنفاسها.

لم تستطع أن تتكلم لشدة توترها.. لكنها ما كانت لتتكلم حتى ولو استطاعت. لقد كشفت كل ما في نفسها، ولم يبق عليه سوى أن يفعل هو الشيء نفسه.

ـ لديك ربع ساعة لتقومي بكل ما يلزم لتواجهي ضيوفي دون ذعر.

أذهلها قوله تماماً. فلماذا هذا الغضب؟ أليس هو من اقترح عليها هذا العرض! فلماذا يبادر الآن إلى صفعة الاحتقار هذه.

لكن رأسها ازداد ارتفاعاً، وبرقت عيناها البنفسجيتان تمرداً أخفى مشاعرها.

ـ لكنني لا أريد أن أواجه ضيوفك بأي شكل.

قال ببطء: «ومع ذلك، فهذا ما ستفعلينه».

ـ لا علاقة لهم بما نحن هنا لأجله!

لكن كل ما فعله لويس هو السير نحو صف من خزائن الثياب الممتدة من الأرض إلى السقف. بينما تابعت بغضب وهي تلحق به: «ولكن ليس أصدقاؤك من ملأوني ذعراً، بل تلك المائدة الخضراء التي تنتظر هناك جاهزة لكي تزاول عليها عملك الشنيع في هدم أبي».



فقال وهو يفتح إحدى الخزائن: «ما زلت تفترضين إذن أنني الرابح».

وقفت قائلة بصوت يرتجف: «سواء ربحت أم لا، فهذا لن يتم، ألم نتفق ألا تلاعبه إذا قبلت عرضك؟ كان هذا العرض عرضك وقد قبلته أنا».

بعدما أخرج سترة عشاء أخرى، نظر إلى وجهها القلق المتمرد، ثم ابتسم تلك الابتسامة التي يمكن أن تجمّد نهراً جارياً: «لقد سحبت الرهان».

قال ذلك بلطف وهو يرتدي سترته.

سألته متلعثمة وهي تنظر إليه بذهول: «لا.. لا أفهم.. ما.. ماذا تعني؟».

قال بعدم اكتراث: «سحبت الرهان وتغيرت الاتفاقية».

ـ ولكن.. لكنك لا تستطيع هذا!

نظر إليها ساخراً: «لمَ لا؟ هل ستمنعينني؟».

صرخت بارتباك بالغ: «ولكن.. سبق أن وافقتك على اتفاقيتك الحقيرة تلك. ما الذي تريده مني غير ذلك، يا لويس؟».

ـ آه، هذا هو الأمر (الحقيرة). لقد قررت ألا أطلب شيئاً حقيراً.

وأخذ يتفحص ربطة عنقه أمام المرآة: «في الواقع، صفة (الحقارة) لا تناسب خطتي على الإطلاق، وهذا هو سبب تصميمي على سحب الرهان».

سألته بقنوط بالغ: «ماذا تريد إذن، بحق الإله؟».

فنظر إليها في المرآة، وعيناه السوداوان لا تعبران عن شيء، وهذا ما جعل كارولين تكف عن التنفس، منتظرة انتهاء هذا الصمت، ثم.. ثم أجابها بكلمة واحدة نسفت ذهنها: «الزواج».

ثوانٍ، دقائق.. لم تعرف كارولين كم من الوقت مرّ عليها وهي تقف تحدّق فيه، وكأنه على كوكب وهي على كوكب آخر.

ثم أطلقت ضحكة مرتجفة: «أنت تمزح».

لكن هدوءه البالغ، وملامحه الجادة للغاية أنبآها بأنه لا يمزح، إنه يعني

ذلك. الزواج، لويس يريد أن يتزوجها!

ودون كلمة، استدارت متجهة إلى الباب. كانت تحدث نفسها بأن الأمر تجاوز الحد، وطال أمده، وهي الآن...

وتسلل صوته خلفها برقة الأفعى: «لقد مثّلنا هذا المشهد من قبل، يا كارولين. ولكن يسرني تمثيله مرة أخرى إذا شئت.. فاخرجي إذن من هذا الباب، فألاعب أنا أباك الليلة على المائدة الخضراء».

تجمدت يدها على مقبض الباب، واستدارت إليه ببطء ثم استندت إلى الباب خلفها، ونظرت، منهزمة، إليه مستنداً إلى الخزانة المصنوعة من خشب الورد، متصالب القدمين ويداه في جيبيه.

كان طويلاً أسمر وأكثر الرجال الذين قابلتهم في حياتها جاذبية، والثقة بالنفس تنضح من كل خلية في جسده المسترخي.

هذا الرجل الواثق من نفسه يخفي سبباً غامضاً لطلبه هذا.

سألته وهي تهتز: «يبدو أن لديك سبباً وجيهاً لهذا العرض؟».

ـ نعم.

فتوتر فمها: «هل لي أن أعرف ما هو ذلك السبب؟».

أجاب: «ليس قبل أن توافقي على ذلك. وربما هذا غير كافٍ، إذ هو يعتمد على نوع الموافقة عليه».

قالت برقة بالغة وقد ابتدأت تغضب: «كيف تريد مني أن أوافق على ذلك؟».

فلاحت شبه ابتسامة على فمه: «حسناً، كلمة (نعم) تنفع كخطوة أولى، ولكن أن أسمعك تقولين نعم لأنك لا تتصورين حياتك بدوني، لأمر جميل جداً».

بما أن نسبة حدوث ذلك هي أقل من العدم، لم تزعج نفسها بالجواب على ما يقول، بل قالت تسأله: «وما نسبة الحظ في أن تغيّر الاتفاقية قبل أن تنتهي مني؟».



هز رأسه: «أنتهي منك؟ في هذه الحالة، لا يمكن أن أنتهي منك. قد أبدو رجلاً أميركياً متحرراً، ولكن تذكري أنني أسباني، ولأنني أسباني فأنا أتزوج مرة واحدة في حياتي، زواجاً لا افتراق فيه.. فضعي ذلك في حسابك عندما تقررين. إنني أريد حياتك، يا كارولين. ولأنني رفعت قيمة الرهان، فلن أمتنع عن اللعب مع أبيك فقط هذه الليلة، بل سأوافق على دفع ديونه كلها، وأخلص منزلك من الرهن وأبقيه لك حتى نهاية حياتك. وسأستلم في الوقت نفسه منك وظيفة حراسة ومراقبة أبيك. هل هذا يحسّن هذه الاتفاقية قليلاً في نظرك؟».

يحسّنها، بل يجعلها إجبارية. وشعرت بهمّ جعل شعورها أقرب إلى الهزيمة..

ـ إذا كان هذا المدى الحياة، فلماذا اخترتني أنا بالذات، إذن؟

وقطبت جبينها، متمنية لو تفهم ما يجري. وكانت تعلم، أن هناك شيئاً ما، لا يريد لويس الحديث عنه.

ـ ولماذا لا أختارك؟ أنت رائعة الجمال، حسنة النشأة والتربية، يمكنك أن تزيني ذراع أي رجل.

قالت بمرارة: «بكلمة أخرى، تذكار نصر».

ـ كما تشائين.

لم يشأ مناقشتها في هذا الوصف المشبع بالاستخفاف.

ـ لكن الصدق يرغمني على أن أضيف أنني ما زلت أرغب فيك بشكل جهنمي وإلاّ لما كنت تقفين هنا على الإطلاق، صدقيني.

أجفلتها ابتسامته الجافة. لكنها استوعبت جيداً ما قاله، وما معناه «احمدي ربك لأنني ما زلت أرغب فيك، وإلا كنت الآن واقفة في مكان مختلف كلياً تواجهين متاعب جمّة».

قالت باختصار وبكل بساطة: «نعم. سأتزوجك».

لم يحاول لويس، والحق يقال، التبجح بانتصاره، بل اكتفى بأن قال:

«هذا حسن».

ثم استقام واقفاً وتحول يفتح الدرج الأعلى.

وحين وقفت كارولين تنظر إليه، خيّل إليها أنها تلحظ رجفة ضئيلة للغاية في يده ولكن عندما التفتت ورأته يحمل منديلاً نظيفاً في يد بدت ثابتة للغاية، فهمت أنها كانت واهمة.

ـ لديك الآن عشر دقائق لتحسني شعورك بشأن الاجتماع بضيوفنا.

قال ذلك بلهجة متملكة لم تغب عن ذهن كارولين: «الحمّام خلف ذاك الباب، والملابس في الخزائن، لدي عدة اتصالات عليّ أن أنجزها».

ثم أخذ يسير نحوها وقد عاد لويس ڤازكيز الهادىء البارد الغامض الذي طالما ازدرى فكرة الضعف.

كانت تسد الباب الذي أراد المرور منه للقيام باتصالاته. لكن كارولين لم تشأ، على الإطلاق، أن تتنحى جانباً ولو مقدار إنش واحد لكي يمرّ.

وصل إليها، ثم وقف فأخذ قلبها يخفق. كان أطول منها، أعرض منها، وأشدّ اسمراراً. كان يرهبها بشكل لم تشعر به قبل أن تعرفه.

سألها ساخراً من عنادها: «هل هناك ما غفلنا عنه؟».

ابتلعت ريقها وقد تملكها توتر شديد قبل أن تقول ما بذهنها.

ـ ألم تؤلمني بما يكفي منذ سبع سنوات؟ فلماذا تستمرّ في انتقامك هذا الذي يبدو أنك تضمره لأسرتي؟

رفع يده يلمس خدها الشاحب فالتهبت بشرتها تحت أصابعه.

تمتم: «منذ سبع سنوات ما كنتِ بحاجة إلى إلقاء هذا السؤال».

ـ منذ سبع سنوات ظننتك تحبني. لكنه لم يكن حباً، أليس كذلك يا لويس؟ كنت مجرد تسلية لك بين أمورك الجادة.

سألها بابتسامة غريبة: «هل هذا ما تظنينه؟».

ـ بل هذا ما أعرفه.

ما زالت حتى بعد مرور سبع سنوات تشعر بمرارة هذه المعرفة التي



تنهش قلبها.

أحنى رأسه يضع شفتيه على أذنها، فتصلّب جسمها، ثم همس بسخرية رقيقة مغرية: «كيف تطيقين إذن أن ألمسك؟».

قفزت جانباً مبتعدة عنه، شاعرة نحو نفسها بالكراهية ونحوه بازدراء لا تكاد تستطيع معه مواجهة ما يضطرب في داخلها.

لم يقل لويس شيئاً، لكنه لم يكن بحاجة إلى ذلك.. إذ قابلها بإذلال وفتح الباب وتوارى خلفه.

وإذ تركها وحدها انهارت بضعف على أقرب كرسي، وسرعان ما شعرت بشيء تحتها، فمدت يدها تسحب محفظتها.

وقفت ثم سارت نحو السرير حيث ألقى لويس سترته التي ما إن أمسكت بها، حتى أحاطت بها رائحته. كانت عيناها جامدتين ولكن حواسها الأخرى ما زالت تعمل بنشاط، فلمسها لهذه السترة كلمسها للويس نفسه، وكشمّها إياه وشعورها به وحاجتها إليه.. حاجتها إليه..

كانت السترة مبللة ولهذا على ما يبدو استبدلها لويس. كانت رطبة حول الكتفين لأنه وضعها حول كتفيها المبللتين.

صدرت عنها آهة هي، من الكآبة واليأس، بحيث شعرت بالسرور لعدم وجود أحد يسمعها. سبع سنوات وهي تحبه.. سبع سنوات وهي تكرهه. لكنها سبع ثوان حتى تبدأ بالقتال في معركة خاسرة ضد المشاعر التي يوقظها في نفسها.

كان ذلك فظيعاً، كمواجهتها لأكثر أسرارها إظلاماً، ذلك أن الكراهية هي الجانب الآخر من الحب.. أليس هذا ما يقوله الرومنطيقيون؟ ماذا بقي لديها بعد هذا ليعزيها؟

تساءلت وهي تلقي الأشياء الثلاثة من يدها على السرير وتدير ظهرها لها، إنها لا تعلم.. ولا تظن أنها تريد أن تعلم.

الملابس التي أخبرها أنها ستجدها في الخزانة، كانت ملابسها هي،

وذلك أظهر، مقدار الثقة التي وضعها في هذا العمل. كان شديد الثقة في نفسه، ومتأكداً أنّه سينال مراده، عاجلاً أم آجلاً.

والحقيقة أن كل ما أحضرته معها إلى ماربيا أصبح هنا، في هذه الخزانة.. وسرعان ما استولى القلق عليها.

أسرعت في تغيير ملابسها، وأمضت أقل من خمس دقائق في حمام حسن التجهيز، قبل أن تتبرّج وتختار ما عليها أن ترتديه.

عاد لويس وهي تلبس حذاء عالياً. كانت خصلات شعرها الموازية لذقنها ناعمة لامعة، وزينة وجهها كاملة، وثوبها الحريري قرمزي اللون.

هذه البساطة المثيرة التي أسبغها طراز الثوب عليها، جعلت عينا لويس تلمعان تحت أهدابه الكثيفة.

ـ أنا معجب بك. لم أظن أن بإمكانك الانتهاء في هذا الوقت القصير.

لكنها نظرت إليه ببرودة: «ألم يستيقظ أبي بعد؟».

أجاب ببطء متكاسلاً: «إنه منتصف الليل تقريباً، كارولين. وهو الوقت الذي ينام الناس فيه دون أن يفكروا في الاستيقاظ».

ـ كما لا يخرجون من الحفلة في مثل هذا الوقت الباكر.

ابتسم لتعنيفها المقتضب وقال: «أنا بومة أسهر الليل بطوله».

ـ وكذلك هو، أين هو الآن؟

ـ في المطبخ يلعب الورق مع الطاهي.

وعندما رأى ذعرها، قال غاضباً: «إنها مزحة، بحق الله».

بعض المزاح مؤلم. تقدم لويس نحوها يمسك بيدها: «إنه في الصالون الرئيسي يستمتع بصحبة الضيوف. هل لك أن تبتهجي».

تبتهج؟ سيطر عليها الغضب. كانت متعبة، منهكة فقد عاشت اليوم أسوأ ساعات حياتها. فكيف يطلب منها أن تبتهج..

همست: «لو كان لديّ مثقب أوراق يستحق الرمي، لرشقتك به».

تنهد لويس تنهيدة عميقة وجذبها إليه، فبدا عليها الانزعاج لسماحها



له بضمها إلى صدره. وقال لها: «إنه على خير ما يرام وسيبقى كذلك ما دمت أرعاه. أظنك فهمت ذلك».

ـ إنه مدمن يا لويس، والمدمنون لا يشفون بين ليلة وضحاها.

قال بهدوء: «أعلم هذا».

قالت بحدة: «هل يعلم بهذه الاتفاقية التي عقدناها لتوّنا؟».

ـ يعلم أنك هنا معي، وهذا كل شيء تقريباً.

وهذا يعني أنه ما زال أمامها مشكلة عليها مواجهتها، فكرت في ذلك بقلب مثقل، ثم خرجت من بين ذراعيه. فضاقت عيناه لأنه رأى جانب وجهها المرهق، لكنه لم يحاول تأخيرها. وبدلاً من ذلك عاد إلى الباب حيث وقف عنده ينتظر منها أن توافيه، وانضمت هي إليه دون أن تنطق بكلمة.

وعندما سارا إلى الصالون الرئيسي، جنباً إلى جنب، شعرت بالتوتر.

ـ هل لي أن أعرف هؤلاء الناس قبل أن أقابلهم؟

سألته ذلك دون أمل كبير في تلقي الجواب.

ـ هل أنت متوترة الأعصاب؟

ـ نعم.

ـ لا حاجة بك لذلك إذن. لأنك ستقابلين أسرتي وليس عصابة مسلحة.

أسرته؟ ونظرت إليه بعدم تصديق: «لكنك أخبرتني مرة أن لا أسرة لديك».

ابتسم ابتسامته الغريبة تلك، وقال: «هذا صحيح».

اقشعر جسدها وهي ترى وميض عينيه المفاجيء، فقالت ببطء: «أراك غامضاً، كالعادة».

أجاب بابتسامة مختلفة: «إنه سلاحي السري».

لكنه ليس سلاحه الوحيد. فكرت في ذلك ويده حول خصرها بينما يده الأخرى على مقبض الباب. وكان للمسته سريان الكهرباء في كيانها

فأجفلت.

جعلته ردة فعلها هذه يتوقف وجعلت ملامحه تقسو. وقال متجهم الوجه يقول: «تذكري من أنت وماذا تعنين لي عندما ندخل إليهم. من المهم جداً لي أن تُوحي بأنك عروس سعيدة لا عروس بالإكراه».

بقيت صامتة دون أن تنظر إليه. لكنها رفعت رأسها طائعة ورقّت أساريرها عندما فتح باب الصالون الرئيسي.

أول ما تحولت عيناها إليه هو مائدة القمار الخضراء، فشعرت بالراحة لأنها رأتها الآن مغطاة بغطاء أبيض ووُضع عليها شراب الورد المثلج ووقف مدير اللعب الذي كان سابقاً يرص الفيشات، يلمّع الأكواب ببراعة أيّ نادل.

ثم نظرت إلى الغرفة التي تعجّ بالضيوف، فمن رأت فيهم وجوهاً غائمة بدوا الآن أشخاصاً إسبانيين.

أصالة وغطرسة.. هاتان هما الصفتان الساخرتان اللتان تبادرتا إلى ذهنها وهي ترى الطريقة التي ينظرون فيها إليها، وفكرت إن كانت صلة قرابة تربط هؤلاء بلويس؟ إن كان الأمر كذلك فهو إذن من سلالة نادرة للغاية. رأت بعضهم شاباً، وبعضهم عجوزاً، بعضهم فضولياً بشكل واضح، وبعضهم حذراً ومتحفظاً. ولكن ما صدمها أكثر من أي شيء آخر، هو أمواج النفور والكراهية التي فاضت منهم، مع أنها أحست بهم يحاولون جهدهم لإخفائها.

أدركت أنهم لا يحبون لويس.. قد يكونون هنا في بيته، يستمتعون بضيافته، لكنهم يكرهونه لسبب ما.

وهذا ما زاد الوضع تشوشاً.

ثم رأت، أخيراً، أباها، واقفاً بعيداً قليلاً عن الآخرين ولا يبدو عليه السرور أبداً. كان ينظر أمامه عاقد الجبين ولم يزعج نفسه بالنظر إليهما، كما فعل الجميع عندما انفتح الباب.



علمت ما يفكر فيه، إنه يفكر كيف يمكنه اللعب وكل هؤلاء حوله. فهذه هي طريقة تفكيره عندما يستولي عليه جنونه.

حسناً، إنه على وشك أن يتلقى مفاجأة سيئة نوعاً ما! لقد تخلى عنها هذه الليلة، تخلى عنها كلياً بحيث صَعُب عليها الصفح عنه هذه المرة.

هذه المرة؟ كم عدد (هذه المرات) التي مرت بهما في السنوات العشر الماضية؟

وكم عدد تلك التي ستحدث مستقبلاً؟ عددها سيكون كبيراً على الرغم من وعود لويس.

ثم رأت امرأة بدينة نوعاً ما، ترتدي ثوباً ملوكياً من الحرير القرمزي اللون، وقد انبرت لتخترق هذا الصمت بتعنيف متغطرس: «لويس، أنا أكبر من أن أحضر حفلات ساهرة. هل رأيت الساعة؟ هل أدركت مدى فظاظتك وأنت تجمعنا هنا ثم تتركنا ننتظر مسراتك؟».

تمتم لويس وكأنه لم يلحظ الازدراء في لهجة المرأة المسنة: «المعذرة، عمتي «بياتريس» لكنني كنت واثقاً من أنك ما كنت لترغبي في تفويت هذه الحفلة خاصة بعدما تعرفين السبب».

سألته بفضول: «سبب.. أي سبب؟».

أجابها بلهجة ذات معنى، مدغدغاً حواسهم بكلمات مختارة: «إنه احتفال، احتفال بحسن حظي».

في اللحظة التي قال فيها هذا، شعرت كارولين، مرة أخرى، بذلك الضيق في صدرها، بسبب توقع ما سيحدث. نزلت يد لويس من ظهرها إلى خصرها، ولكنها لم تعرف ما إذا كان هذا دليلاً على التحذير أم الدعم، وفي هذه الأثناء ارتفع رأس أبيها وتسمّرت عيناه بحدة على ابنته.

كان لويس يقول بجانبها: «أحضرتكم جميعاً إلى هنا حسب تقاليد أسرة فازكيز لأعرفكم إلى الآنسة كارولين نيوبري. السيدة التي وعدتني بأن تكون عروسي.. و «الكونتيسة» العتيدة..».

بعد هذا البيان، صعُب القول من هو الأكثر ذهولاً. أسرته أم كارولين ذاتها.. إذ كانت كارولين تترنح وقد فقدت اتزانها لسماعها هذا الخبر: «كونتيسة» لويس العتيدة، يعني أنه هو «كونت».

خفق قلبها بعنف وعمّت الصدمة كيانها، وعندما رفعت رأسها ونظرت، لم ترَ سوى وجوهاً مطأطأة الهامات. كان هذا فظيعاً، الوضع كله كان فظيعاً للغاية. ليس لها بل للويس. أليس عند أي واحد من هؤلاء القوم كلمة جميلة يقولها له؟ ألا يمكن لهم، أن يتظاهروا، على الأقل، بالسرور لهذا الخبر؟

وهناك بعيداً عن الآخرين، كان أبوها جامد الوجه.. فقد فهم بسرعة ما حدث، فهو وإن كان غارقاً في ذاته معظم الوقت ليس غبياً أبداً. علم أن إعلان لويس عن زواجه بابنته، يعني أنها باعت نفسها له بثمن هو ديون أبيها.

- لا.

رأت فمه يشكّل كلمة الاستنكار هذه، فخنقتها العبرة، فجأة انبرى صوت واحد مخترقاً هذا الصمت.

وتقدمت امرأة بسن أبيها تقريباً: «تهاني. ظننا أحضرتنا جميعاً إلى هنا الليلة لأنك تريد أن تتخلى عن لقبك وتعود إلى أميركا!».

بل كانوا يأملون ذلك، هذا ما فكرت فيه كارولين في ذهنها وهي تلاحظ تغير جوّ الغرفة من العداء الخفي إلى البهجة المصطنعة. وبعد ذلك، أغرقتهما أمواج التهاني ووجدت نفسها تجاهد في الصمود أمام الأسماء والمعانقات. ودار النادل، مدير اللعب سابقاً، يناول أكواب شراب الورد لمن يرغب في المشاركة في التهنئة.

بقي والد كارولين بعيداً عن هذا كله.

كان يحدق فيها وكأنما زالت عن عينيه غشاوة فأصبح يرى بوضوح للمرة الأولى منذ سنوات على ما يبدو.. أخافها ذلك.. أخافتها تلك



النظرة، وانقلاب لون وجهه إلى اللون الأغبر ثانية بعد أخرى.

- لويس.. أبي.

تمتمت بذلك وهاتف يهتف بها أن شيئاً رهيباً على وشك الحدوث. ولكن عندما انتبه لويس إليها، تملكها الرعب وهي ترى أصابع أبيها تفلت كوب الشراب ويسقط على السجادة.

- لا، يا أبي، لا.

صرخت بذلك وهي ترى وجه أبيها يتجعد ألماً، بينما ارتفعت يده تتشبث بصدره قبل أن يبدأ بالانهيار.

***

## ٥ ـ أسرار تنكشف

بعد ذلك أصبح كل شيء غائماً مشوشاً بارداً، إذ قفز لويس من جانبها ليمسك بأبيها قبل أن يصل إلى الأرض. وهذا ما فعله النادل، هو أيضاً، فتمكنا، عند ذلك، من تمديده على أريكة، أما كارولين فوقفت ضائعة في ضباب الصدمة.

هذا ما فعلته أنا.. كانت تفكر في هذا مرة بعد أخرى. لقد قتلت أبي لتوّي، لم تستطع أن تتحرك ولكن شخصاً آخر، شخصاً غريباً رأته أثناء فوضى التهاني تقدم نحو الأريكة بسرعة ثم ركع على الأرض يفحص أباها.

أوحى إليها إذعان لويس له على الفور، بشيء لم تستطع فهمه حالياً. لكنها أخذت تنظر وكأنما من وراء زجاج، وأصابع الرجل الطويلة تفحص النبض في عنق أبيها قبل أن يبدأ في حل ربطة عنقه بسرعة ويفتح أزرار قميصه.

قال آمراً: «فيتو.. أحضر حقيبتي من السيارة، أرجوك».

أسرع الرجل الذي قفز قبل قليل مع لويس لمساعدة أبيها، مغادراً الغرفة، ثم أحاطت ذراع بكتفي كارولين بعناية.

كانت تلك المرأة صاحبة الثوب القرمزي التي تمتمت: «اهدئي. زوجي طبيب وسيعرف ما سيفعل».

ـ إنه.. إنه يعاني من.. من الذبحة الصدرية.

خرجت هذه الكلمات المرتجفة من حلق كارولين الأشلّ..



ـ عليه.. أن.. يأخذ حبوباً هي.. هي في جيبه. أبي!

صرخت بذلك حين تحررت أخيراً من شلل صوتها ثم حاولت الإنطلاق إلى أبيها، لكن عمة لويس أمسكت بها.

قالت تنصحها: «دعي «فيديل» يقوم بعمله، يا طفلتي».

ثم نقلت ما أنبأتها به كارولين إلى زوجها الطبيب.

استدار رأس لويس بعنف، وعيناه السوداوان تلسعان كارولين وكأنها أفشت لتوها سراً شيطانياً أرادت من ورائه أن تجرحه. لم تفهم، لا نظرة الاتهام تلك ولا الغضب البالغ الذي رافقها، كان شاحب الوجه شحوباً هو أشبه بشحوب أبيها المخيف الأغبر.

وجد الطبيب علبة الحبوب فأخذ يقرأ بسرعة الوصفة المصحوبة بها، وفي هذه اللحظة وصلت حقيبته فطلب من لويس الانتباه، طالباً منه أن يخلع سترة أبيها ثم يرفع قميصه ليضع جهاز ضغط الدم حول الذراع. وأثناء قيام لويس بذلك، كان الطبيب يصغي إلى دقات قلب أبيها.

ربما كان ذلك أمراً عادياً له، يمارسه بكفاءة، لكنه بالنسبة إلى كارولين كان هو الأسوأ.. أسوأ شيء مرّ بها في حياتها. إنها السبب.. وشعرت بالذنب، فعلت به هذا لأنها لم تصر بأن تخبره هي بالأمر على انفراد وبطريقتها الخاصة الرقيقة.

لكنها لم تهتم للأمر، إلا بعد أن رأت وجهه يمتقع، كانت غاضبة منه، والمرارة تملأ قلبها والواقع أنها أرادت أن تصدمه ليرى بالضبط ما أجبرها على فعله!

ولكن ما جعلته يواجهه كان أهم بكثير مما فعله هو بها.

تمتمت عمة لويس: «لقد ابتدأ يستفيق».

كان الطبيب يتحدث إليه بهدوء ولويس جالس بجانبه وقد اكتسى وجهه الأسمر بقناع من الصوّان لم تره كارولين عليه من قبل، ووقف الآخرون عاجزين.

رأت إحدى يدي أبيها تتحرك، مرتفعة لتغطي عينيه، فبدا ضعيفاً مسناً عاجزاً ممدداً هناك. وإذ هفا قلبها إليه، تحرّرت من الذراع الحانية حولها وذهبت إليه.

ـ أبي... وشهقت.

شعرت بلويس ينظر إليها، ثم يقف متجهماً وهو يفسح لها الطريق لتأخذ مكانه للجلوس بجانب زوج عمته. مدت يدها تمسك بيد أبيها المرتجفة الباردة كالثلج، ثم تزيحها برفق عن عينيه، وهي تهمس بصوت مختنق: «أنا جداً آسفة».

فأجاب بضعف: «كانت صدمة، ليس إلاّ. لم أكن أتوقعها، وقد نسيت أن آخذ حبة الدواء هذا النهار، إنه ذنبي، سأصبح بخير بعد دقائق».

انتظر الطبيب أن تؤتي حبة الدواء مفعولها قبل أن يعود لأخذ الضغط. ونظرت إليه كارولين متسائلة بلهفة فأجابها بإيماءة خفيفة، فتدفقت دموعها ارتياحاً.

رأى أبوها دموعها فبدا الضعف على وجهه الأغبر، وتأوه قائلاً: «لا تبكي لأجلي، يا كارولين، فلدي ما يكفيني الآن دون إضافة دموعك».

فقالت بصوت مختنق: «ولكن كل ذلك ذنبي، كان عليّ أن أنبهك إلى أمرنا، أنا ولويس. كان ذلك..».

فقاطعها لويس الذي انتبه إلى وجود المستمعين من حولهم فهو يريد الحفاظ على سرية اتفاقيته اللعينة من خطر انكشافها. وهكذا قاطعها متجهماً: «أردنا أن يكون الخبر مفاجأة سارة للجميع».

بدا أن أباها فهم ذلك واقتنع به. إذ ارتفعت عيناه إلى لويس متمتماً بعبوس: «إننا بحاجة إلى التحدث».

تدخل الطبيب قائلاً: «ولكن ليس الليلة، لأنك الليلة ستبيت ضيفاً في مستشفاي».

وما إن قال ذلك، حتى تصاعد صوت سيارة الإسعاف في الخارج،



فجمد دم كارولين وتشبثت بيد أبيها. ولكن ما أقلقها حقاً هو أن أباها لم يصدر عنه أي احتجاج، فتح عينيه قائلاً: «لا تخافي هكذا، فأنا أخطط لكي أبقى شوكة في خاصرتك لمدة طويلة جداً» وابتسم لها بوهن.

ـ هل هذا وعد؟

قالت ذلك جادة بشكل مؤلم جعل الموجودين يخفضون أبصارهم.

قال بأسى: «وعد».

ثم نظر إلى لويس الذي كان واقفاً خلف كارولين، وقال له ببطء: «لم يكن تجاوبها بالشكل الذي كنت تريده، كما أظن».

فوافق لويس على كلامه: «لا».

ـ ألم تعرف هي بالأمر بعد؟

قالت كارولين بحدة: «أعرف ماذا؟».

لكن أباها أغمض عينيه ثانياً، وتوقف كل كلام عندما أخذ الطبيب يستمع إلى ضغط الدم. عند ذلك دخل ممرضان الغرفة، فأوقف لويس كارولين برفق مفسحاً مجالاً لهما للعمل. ولكن في اللحظة التي ابتدأ فيها الرجلان بنقل والدها إلى المحفة، عادت هي إلى جانبه، أما سائر الناس الموجودين فقد تبخروا في الأثر، فلا هي رأتهم ولا أرادت أن تراهم.

توجهت سيارة الإسعاف إلى المستشفى بهدوء بالغ، وصحبت كارولين أباها في السيارة بينما تبعهما لويس بسيارته الخاصة. في المستشفى أجريت فحوصات عدة لأبيها، قبل أن يطمئنهما زوج عمة لويس، الطبيب، إلى أن الأمر لم يكن ذبحة قلبية قوية.

ـ ولكن ضغط الدم ما زال مرتفعاً قليلاً، ولهذا سأبقيه هنا الليلة تحت الرقابة.

إستندت كارولين بضعف إلى الحائط خلفها ولكن حين حاول لويس أن يلمسها، دفعته عنها فجأة، قائلة: «أنا بخير».

قال بخشونة: «لا يبدو عليك ذلك».

فتجاهلته ناظرة إلى الطبيب تسأله: «هل يمكنني رؤيته الآن؟».

ـ لعدة لحظات فقط، فقد أعطي مخدراً ولهذا لن يعلم بوجودك.

مكثا عدة لحظات لأنه كان نائماً كما قال الطبيب، لكن لونه كان أفضل كثيراً. وقفت كارولين إلى جانب سريره ومررت يدها على يده برفق. أما لويس فأخذ ينظر إليه بصمت من مكانه. ثم، تركت لويس يخرجها من المكان لأنها تعلم أن ليس بإمكانها القيام بشيء من أجله.

لم يتكلما أثناء سيرهما في المستشفى، لكنهما، على كل حال، لم يتبادلا كلمة واحدة منذ بدأ ذلك الهلع في غرفة جلوس لويس.

عندما وصلا إلى باب الخروج وجدا زوج عمة لويس ينتظرهما.

نظر جاداً، إليهما، ثم قال: «سيشفى.. لم يكن الأمر خطراً حقاً».

ـ نعم، أعلم هذا..

أومأت كارولين قائلة ذلك وهي تغالب دموعها. ثم اندفعت فجأة تعانق الطبيب هامسة: «شكراً لأنك كنت هناك».

قال: «كان ذلك سروراً لي».

ولكن نظراته ظلت مركزة على وجهها المنهك البالغ الشحوب، ثم قال للويس: «خذها إلى البيت، واجعلها تنام ولا تسمح لها بالقدوم إلى هنا قبل الظهر على الأقل».

غادرا بعد ذلك مباشرة، وكانت سيارته السوداء تنتظر في الموقف. وبعد أن اطمأن إليها في المقعد الأمامي، جلس وراء المقود.

كان وجهه جامد التعابير يقود السيارة دون أن يتكلم. كان كل شيء مظلماً هادئاً، وحتى البوم الذي يحب لويس تشبيه نفسه به، لم يكن موجوداً.

ـ أريد العودة إلى الفندق.

فلم تتلقّ جواباً. أدارت رأسها لتنظر إليه، فلم تر سوى جانب وجهه الجامد «لويس...». انعطف بالسيارة، خارجاً من الطريق الرئيسي عائداً



إلى «برتو بانوس». وراحت تنظر إلى أصابعه الطويلة السمراء المشابهة لأصابع المشعوذين الحاذقة. وجدت نفسها تفكر في ذلك بغباء، فأدركت أنها إنما تشغل ذهنها بهذه الملاحظات لأنها لا تريد الدخول معه في مشاحنة جديدة.

لكنها لم تستطع أن تترك الموضوع يمرّ: «لا أريد أن أواجه كل أولئك المدعوين».

فقرر أن يجيبها: «لقد ذهبوا إلى بيوتهم».

كان صوته هادئاً وهو يضيف قائلاً: «أظنك توافقينني على أن الحفلة انتهت».

قالت بصوت عنيف: «وهل بدأت قط؟».

هذا إذا كان اسم (حفلة) يناسب ما أراد لويس إقامته الليلة، الحقيقة أن تصرفات هذا الرجل حيرّتها، وأسرته أيضاً، في لحظة بدا عليهم العداء والإستياء، وفي لحظة أخرى البهجة البالغة، وقالت تتابع أفكارها بصوت مرتفع: «إنهم لا يحبونك».

أجاب بهدوء: «لم يحظوا بوقتٍ كافٍ ليحددوا مشاعرهم نحوي».

قطبت جبينها: «ما معنى هذا؟».

ـ معناه أنني دخلت حياتهم منذ أشهر قليلة فقط. منذ مات أبي في الواقع، وترك وصية يقول فيها إنه ترك أملاكه وأمواله ولقبه لابنه الذي أنكروا وجوده.

مضت لحظة أخذت تستوعب فيها هذه المعلومات لأنها كانت تفسّر أموراً كثيرة تتعلق بلويس، بقيت غامضة حتى الآن لها، سألته برقة: «هل عرفته؟».

ـ نعم.

ـ دوماً؟

أجاب: «تقريباً».

ـ لكنه لم يعترف بك إلا حديثاً.

قاد لويس السيارة من بوابة الڤيلا إلى الفناء الخارجي. وعندما أوقف المحرك، لم يحاول أي منهما الخروج من السيارة. كارولين، لأنها أحست أن هناك المزيد من المعلومات، ولويس، لأنه يريد أن يقرر مقدار ما يريد أن يبلغها به. قال: «حاول ذلك مرة منذ سبع سنوات، لكن الأمر لم يتم».

سبع سنوات.. سبع. وتوقفت أنفاس كارولين فجأة، وهمست: «لماذا؟».

التفت لويس ينظر إلى وجهها الشاحب الذي كان متعباً فأصبح يقظاً واعياً، متزناً. فقد علمت، دون أدنى شك، أنها جزء من ماضيه منذ سبع سنوات، وحوّل نظراته عنها، وهو يقول: «لم يكن هو من أريد».

ثم فتح سيارته وخرج منها، تاركاً كارولين جالسة مكانها تستخلص ما تحب من ذلك التصريح.

هل كان يتحدث عنها؟ هل كان يتحدث عنهما، هما الإثنان؟ هل يقصد أنه كان هنا في ماربيا منذ سبعة أعوام ليجتمع بأبيه، وبدلاً من ذلك تورّط مع فتاة إنكليزية وأبيها المقامر؟

فتح لويس بابها وانحنى يمسك بذراعها يساعدها على النزول، جاءت إلى جانبه وقد عاد التوتر، والارتجاف يستوليان عليها.. فهي لا تجرؤ على استخلاص النتيجة المنطقية من وراء أسئلتها.

أكان يقصدها بقوله؟ أهي من كان يريد منذ سبع سنوات؟ لا، لو كان ذلك لما سلب والدها أمواله على مائدة القمار.

قال لها بخشونة: «هيا بنا، لقد عانيت الكفاية في ليلة واحدة».

نعم. الحق معه، لقد عانت الكفاية. وافقته على ذلك وهي تشعر برأسها ينبض ألماً، لم تشأ أن تفكر أكثر من ذلك. لم تشأ أن تفعل شيئاً عدا التكوم في أقرب سرير ثم الإستغراق في النوم.

كان المنزل غارقاً في الظلام، فأشعل لويس المصابيح في الردهة، ثم سار



أمامها إلى غرفة النوم.

وفي الداخل، وجدت أنه لم يبق لديها، من الطاقة، ما تتمكن معه من خلع ملابسها. وأخذ هو ينظر إليها وهي تهبط جالسة على حافة السرير، ثم تغطي عينيها المتعبتين. وبعد لحظات نهض يفتح الخزائن، ثم سمعته يتوجه نحوها قبل أن تشعر بشيء حريري يستقر في حجرها.

رفعت يدها عن عينيها فرأت قميص نومها الرمادي، وبرودة ودون اعتبار لتعبها جذبها لتقف، وشدّها نحو الحمام: «اغتسلي وغيري ملابسك».

خرجت من الحمام بعد ذلك فلم تجد لويس في الغرفة ورأت أغطية السرير مثنية جانباً والسرير جاهزاً لتنام فيه ففعلت ذلك دون تردد وما هي إلا لحظات حتى تهاوت إلى مهاوي النسيان.

***

# ٦ ـ ثأر وثراء

استيقظت كارولين لتجد نفسها غارقة في ضوء النهار. كانت نائمة على بطنها بين بحر من الملاءات البيضاء.

أخذ قلبها يخفق. لقد كانت ذكرى الساعات الأربع والعشرين الماضية كافية لتجعلها جامدة مغمضة العينين بشدة وهي تحاول استرجاع ما حدث البارحة.

كان يوم البارحة مخيفاً. لكنها ما زالت تشعر بذلك الخفقان الرقيق العذب الذي رافق عناقهما بالأمس قرب المسبح.

قالت بصوت خافت: «آه.. لويس!».

ثم تمنت لو أنها لم تفعل، فحتى الهمس باسمه يثير مشاعرها.

حدثت نفسها بأن عليها أن تكرهه.. تكرهه لما فعله بها مرة أخرى، لا عجب أن تشعر بالخوف من ذلك كله.

عند ذلك سمعت طرقاً خفيفاً على باب الغرفة، فقفزت جالسة في السرير. عندما انفتح الباب ودخلت امرأة شابة تحمل صينية الفطور.

تمتمت بأدب: «صباح الخير سنيوريتا. طلب مني السيد لويس أن أوقظك في الوقت المناسب لتقابليه في المستشفى بعد الظهر».

كانت على وشك القفز من الفراش، عندما أضافت الخادمة: «والسيد يقول إن أباك بخير. وسيخرج من المستشفى هذا النهار».

وعندما جلست كارولين، لتستوعب هذا الخبر السار، وضعت الفتاة



الصينية على منضدة صغيرة، ثم استدارت تسألها إن كانت تريد شيئاً آخر، فأجابت بأدب: «آه! لا، شكراً».

ولكن ما إن سارت الخادمة نحو الباب، حتى خطرت لها فكرة مفاجئة.

ـ هل ترك السيد عنوان المستشفى؟ لقد نسيت كتابته أثناء الذعر الذي أصابني الليلة الماضية.

ـ لقد وضع السيد «مارتيني» في خدمتك. وهو سيعرف إلى أين يقلّك.

ثم خرجت الخادمة تاركة كارولين تتساءل عمن يكون السيد مارتيني الذي تظن الخادمة أنها تعرفه.

وسرعان ما عرفت ذلك بعد ساعة عندما ارتدت بنطلوناً ناعم النسيج وكنزة وردية اللون. اجتازت الفناء الخارجي فوجدت أنه ڤيتو، النادل ومدير الألعاب، بملابس السائق الآن، واقفاً ينتظرها قرب السيارة السوداء. حياها بأدب بلهجته الأميركية: «صباح الخير آنسة نيوبري».

من هو بالضبط؟ أخذت تتساءل وهي تنظر إليه يفتح لها باب السيارة الخلفي. هل هو حارس لويس الشخصي، مساعده في كل الأمور؟ صديقه؟

أن يتخذ لويس صديقاً ذكياً يستخدمه في كل الأمور، لفكرة تدعو إلى الضحك فلويس ليس من هذا النوع. بل هو من النوع الذي يواجه الحياة وحده ولا يسلم قياده لأحد ولا يأمن أي إنسان.

إنه ممن لا يكشف عن مشاعره الداخلية في كافة الظروف ولم يحدث قطّ أن عبّر لها عن مشاعره.

وهكذا، لا يمكن أن يكون السيد «مارتيني» صديق لويس، لأن رجلاً مثل لويس، يعتبر الصديق نقطة ضعف فيه.

والظاهر أن السيد «مارتيني» لا يبدو صديقاً لأحد، فكرت في ذلك متأملة وهي تنظر إليه وهو يستقر بجسمه الضخم خلف عجلة القيادة. إنه بارد الوجه صلب الجسم، فيه شيء من العنف والقسوة.

تواترت كل هذه الأفكار إلى ذهنها فقط أثناء فترة تحركه بالسيارة بعدما أسدل الفاصل الزجاجي بينهما.

كانت غرفة والدها في الطابق الثاني. ازداد توترها وهي تقترب من مواجهته بالحقيقة. لم يكن ثمة فائدة من محاولة الادعاء.

إنه يعرف الكثير، يعرفها، يعرف لويس، كما يعرف نفسه. ومعرفته تلك بالفرقاء كلهم هي التي أدخلته إلى هنا. وما لا تريده، هو المجازفة بتكرار الشيء نفسه مرة أخرى، عندما يسمع القصة الكاملة.

اقتربت من غرفته. وكان الباب مفتوحاً، وبدا خلفه كل شيء نظيفاً أنيقاً. رأت لويس أولاً، واقفاً ينظر من النافذة. وبدا تحت أشعة الشمس التي تحيط به، أكبر حجماً ومهابة.

إنه قوة تؤخذ في الحسبان! وتملكتها رجفة.

وقفت لحظة تشجّع نفسها على الدخول.

سمعها فالتفت، ثم جمد في مكانه، ناظراً إلى وجهها وهي تنظر إلى السرير، ثم تقطب جبينها لأنها رأته خالياً. كان للغرفة حمامها الخاص، فنظرت إلى ناحيته فإذا هو خالٍ أيضاً، وأخيراً.. حوّلت عينيها إليه، تسأله بخوف: «أين هو؟».

قال: «لا بأس، لم ينتكس».

ارتجف فمها ارتياحاً: «أين هو إذن؟».

ـ لويس؟

هتفت بذلك عندما لم يجب عن سؤالها.

أجابها بهدوء: «إنه ليس هنا».

ازدادت تقطيباً: «ليس هنا؟ ماذا يعني هذا؟ أتعني أنه ذهب لإجراء مزيد من الفحوصات أو ما شابه؟».

هز رأسه وهو يقترب منها خطوتين، أما هي، فقاومت الرغبة في التراجع. إن تحوّل الشمس عن وجهه، هو ما أخفى تعابير ملامحه،



وشعورها المفاجيء بقربه منها هو ما أرهبها.

كانت ملابسه تشبه ملابسها، فكل واحد منهما ارتدى بنطلوناً بسيطاً وقميصاً عادياً. ولكن ليست الملابس في الواقع هي التي تصنع الرجل وليست الملابس الثمينة والثراء الفاحش هما ما جعلها تتقوقع على ذاتها في مظهر الدفاع عن النفس.

إنها ضعيفة أمامه. وأخيراً قال بشيء من الإكراه: «لقد رحل إلى وطنه، إلى إنكلترا».

فأخذت تكرر ببلادة: «الوطن؟ إنكلترا؟».

وصرخت: «ولكن هذا غير ممكن؟ صحته لا تحتمل السفر. أريد أن أراه!».

ازداد لويس اقتراباً منها بينما كانت تدور بعينيها في أنحاء الغرفة تتفحصها مرة أخرى، وكأنها تتوقع أن يظهر بمعجزة ليثبت خطأ لويس.

لكن أباها لم يظهر. وعندما نظرت مجدداً إلى لويس، بدأت الشكوك تساورها في أنه خطط لفصل الأب عن الإبنة.

وقالت بصوت خافت: «أنت الذي جعلته يرحل».

أجاب برزانة: «لقد سافر لإصلاح بيته».

لكنها هزت رأسها: «أنت أجبرته على الرحيل لئلا نجتمع معاً ونفسد خطتك بعثورنا على حل بديل لمشاكلنا».

ـ وهل هنالك حل بديل؟

كان سؤالاً بنعومة الحرير وخزها كلسعة ذيل العقرب السامة.

فسألته وهي تسمع دقات قلبها العنيفة: «لماذا ذهب إذن؟».

فقال بجرأة: «الشعور بالذنب. لم يستطع أن يواجهك، وهكذا رحل قبل حضورك».

يعني أنه هجرها. يعني أنه هرب، يعني أنه تركها هنا لتواجه المشاكل وحدها!

كان هذا أكثر مما تستطيع احتماله، واستدارت لتخرج. ولكن ليس بالسرعة الكافية لإخفاء دموعها التي تدفقت. مدّ يده يمسك بكتفها يمنعها من الذهاب، متمتماً بصوت أجش: «حاولي أن تفهمي. لقد رأى نفسه الليلة الماضية ربما للمرة الأولى، رأى كيف دمّر حياته، وأتعس حياتك!».

فقالت ساخرة: «وهكذا هرب، ما أشجعه!».

ـ إنه الحل الأفضل، يا كارولين. أراد أن يصلح بيته، لا تدينيه لأنه رغب في المحاولة قبل أن يواجهك مرة أخرى.

ـ في هذه الحالة، فليشنق نفسه لأجل ديونه التعسة، وأنت ابحث عن امرأة أخرى تتزوجك يا لويس، لأنني سأخرج نفسي الآن من كل هذا!

وحاولت، غاضبة، أن تنفض يده عن كتفها، لكن تلك اليد استحالت إلى فولاذ.

ـ ما زلتُ أمدّه بالمال ليصلح بيته.

أطلقت كارولين زفرة غضب بالغ، ثم همست: «وهكذا أنا، كما يبدو».

ـ هذا ما اتفقنا عليه.

وتصورت في ذهنها أباها يهرب كأرنب مذعور، بينما لويس واقف يشهد رحيله من موقفه المتغطرس في وكر النسر ذاك، سعيداً لرؤية وجبة شهية تذهب لأن لديه أخرى بين يديه.

ثم ارتجفت ووقفت تفكر، فهي لا تعرف كيف ستصف نفسها. ولكن صورة الحمل الوديع الذي يُقاد إلى الذبح ملأت رأسها. فالتفتت تواجهه: «ألا تخسر أبداً، يا لويس؟».

فبدت على فمه ابتسامة ملتوية وأجاب بصدق: «نادراً جداً».

أومأت برأسها، وتركت الأمر عند هذا الحد، ماذا بقي لديها لتقول؟ إنها هنا لأن لويس أرادها هنا، وذهب أبوها لأن لويس أراد منه أن يذهب.

ـ ماذا سيحدث الآن، إذن؟



سألته هذا، أخيراً، عالمة بأنه سيفهم أنها عادت إلى الطريق السوي.. بحسب رغبته.

ـ الآن؟

قال ذلك بفضول، وعيناه السوداوان مسمّرتان على عينيها البنفسجيتين الرائعتي الجمال والباردتين، في هذا الوجه المماثل لهما جمالاً والبارد هو أيضاً، ثم قال لاوياً شفتيه: «هذا ما سنفعله الآن، وهنا».

ثم أمسك بها وجذبها إليه معانقاً إياها عناقاً حاراً.

لكنها لم تتوقع هذا. وسرت النيران في كيانها قبل أن تجد الإرادة لتخلص نفسها منه، تركها لويس ولكنه ما تركها إلا لأنه هو أراد ذلك. كانت واثقة من هذا.

قال والبسمة الملتوية ما تزال على ذلك الفم المقيت: «الآن، أدفأك عناقي جيداً».

أرادت أن تضربه، وأدرك هو ذلك فنظر إلى عينيها الغاضبتين بعينين شيطانيتين ساخرتين يتحداها أن تفعل ذلك.

مضت لحظات لم يأت أي منهما بحركة أو كلمة. شعرت بالتوتر وارتفع نبضها كراهية.. ولكن شيئاً آخر زاد في غيظها.

ذلك الشيء كان اسمه الحب. الحب الدافىء، الذي يتشبث بالحواس الغاضبة حتى يجعلها تغني كقيثارة غير منسجمة. لا، هذا ليس عدلاً، ليس لحواسها الحق في أن تغدر بها بهذا الشكل!

ـ الزواج بك سيكون مغامرة جهنمية.

تمتم بذلك وكان لتأثير هذه الكلمات قدرة رهيبة أعادتها إلى الأرض متدحرجة بدويّ هائل.

ـ أكرهك.

همست بذلك وهي تدير له ظهرها لكي تخرج شامخة الرأس. لكن خروجها تعطل بظهور الطبيب فجأة، زوج عمة لويس.

ـ آه، هل خرج أبوك؟

بدت عليه الدهشة نفسها التي بدت على كارولين حين دخولها. فأجابه لويس: «كان هناك مقعد خالٍ في الطائرة المتوجهة إلى لندن لم يشأ أن يفوته، فلديه عمل يستدعي اهتمامه الفوري قبل أن يعود في الوقت المناسب لحضور عرسنا الكنسي بعد أسبوع. أما زواجنا المدني فسيتم اليوم».

بعد أسبوع زواج ديني؟ واليوم زواج مدني؟ أجفلت كارولين، وضغطت أصابع طويلة على كتفها تنبهها إلى مراقبة ما ستقول. وقال الطبيب بحكمة: «أتمنى لكما السعادة المطلقة، إن كنت ستأكل في القصر يا لويس، فخذ معك شخصاً يذوق الطعام أولاً، لأن كونسويلا ـ إذا أعطي لها الخيار ـ تتمنى لو تراك تحت التراب على أن تنظر إليك وأنت تسلبها ما بقي من حياتها».

لم تفهم كارولين كلمة مما قيل، ما عدا أنها ولويس سيتزوجان الآن مدنياً وبعد أسبوع كنسياً. قال لها الطبيب باسماً، رادّاً القلق البادي إلى مرض أبيها.

ـ لا تقلقي على أبيك، يا طفلتي. كان بخير عندما رأيته هذا الصباح. وبعد ما حدث الليلة الماضية من جراء الصدمة التي تعرض لها، لن ينسى مرة أخرى أن يأخذ دواءه.

ومدّ الطبيب يده يقرص وجنتها بعطف قبل أن يستدير خارجاً من الغرفة، وهو يقول: «أراكما في الكنيسة. ولكن يجب أن تعرف أن العائلة لن تعترف بزواجكما المدني. ولن تعتبركما زوجين حتى يتم ذلك في الكنيسة، تمنياتي الطيّبة».

ـ ماذا كان يعني بقوله (شخص يذوق الطعام أولاً)؟ ثم أي قصر؟.. وأي عرس؟

ـ العرس الذي عليك أن تتوقعيه، والقصر هو الذي ورثه مع اللقب. أما تذوق الطعام أولاً.. فهي نكتة.. وإن كانت تافهة.



ولكنها لم تبد نكتة لكارولين، بل بدت أشبه بنصيحة خطيرة جداً. فقالت بغضب: «ليتك تخبرني عما يدور حقاً هنا».

فأجاب باختصار: «ثأر وثراء...».

ثم امتنع عن أي كلام آخر وهو يقودها إلى الممر حيث كثير من الناس يتمشون، ما يمنع أي حديث خاص.

كان ڤيتو مارتيني واقفاً قرب السيارة ينتظرهما، وعندما اقتربا منه سأله لويس على الفور: «أي خبر؟».

ـ لا شيء مستعجل.

أجاب الرجل بذلك ملقياً إلى كارولين نظرة ذات معنى.

ضايقتها تلك النظرة، ككثير غيرها، فقالت بحدة: «عليكما أن تفكرا في الالتحاق بالمخابرات السرية».

ثم صعدت إلى السيارة دون انتظار جواب.

مضت لحظات قبل أن ينضم لويس إليها في المقعد الخلفي، وسرعان ما انسابت بهم السيارة. وقال لويس بهدوء: «لم يقصد ڤيتو أن يجرحك».

التفتت إليه بعينين بنفسجيتين استحالتا رماديتين لشدة الغضب: «أخبرني عمن تتحدث؟ عن ڤيتو مدير اللعب، أم ڤيتو النادل، أم ڤيتو السائق الخاص؟».

ـ إنه ڤيتو مدير الأمن لديّ وأكثر الموظفين عندي أهلاً للثقة.

أجاب بهذا ببساطة، لكنه كان تنبيهاً رقيقاً لها بحفظ اللسان.

كانت كارولين، من الضجر من هذا الوضع كله، بحيث لم تهتم بحفظ لسانها، فقالت ساخرة: «آه، فهمت. إنه، إذن، السيد «متعدد المواهب». هل هذا يعني أنه الرجل الذي ينتزع أحياناً أظافر أقدام أعدائك لكي تتأكد من أن الرجال المسنين المرضى سيرحلون بالطائرة خارج البلاد التي لا تريد وجودهم فيها؟».

ـ لم يُقلّ ڤيتو أباك إلى المطار، بل أحضرك أنت إلى المستشفى، إذا كنت

تتذكرين.

أومأت متفهمة: «آه، لديه مساعدون إذن».

تصلبت نظراته الثابتة بعض الشيء: «أظنك تحاولين افتعال مشكل».

إنه على صواب، فهي تريد ذلك.

وضاقت عيناه، وقال محذراً: «كوني.. حذرة جداً جداً».

قالت آمرة: «أوقف السيارة».

أما لماذا قالت هذا، فهي لا تدري.. ولكن لويس لم يتردد إذ ضغط الزر الفاصل بين السائق والمقعد الخلفي فانزلق الزجاج، وقال آمراً: «أوقف السيارة، يا ڤيتو».

فوقفت السيارة.

خرجت كارولين ووقفت إلى جانب الطريق قبل أن تجد فرصة تدرك فيها أنها هناك، كان هذا جنوناً. الوضع كله كان جنوناً، هي لا تعلم ما تفعله هنا في «ماربيا»! لا تعلم لماذا تدع لويس ڤازكيز يسيطر على حياتها! كما لا تعلم ما الذي تفعله بوقوفها هنا تنظر إلى خليج «ملقة» الغارق بأشعة شمس الصيف المحرقة.. فيما هي ترتجف.. ككتلة من الثلج!

سمعت وقع خطوات لويس وهو يشق طريقه بصعوبة على الإسفلت الذائب، لكنها لم تنظر حولها، شعرت به يقف خلفها لكنها لم تقرّ بوجوده. كانت كرامتها مجروحة والقبضة الفولاذية عادت تشدّ على صدرها. ثم قالت بصوت خافت متوتر: «إنها ساعات معدودة على لقائنا، وفي هذه الفترة القصيرة احتلت عليّ، ابتززتني، وخطفتني، وأغويتني. لقد ساعدتني على وضع أبي في المستشفى، وبعد ذلك اختطفته خفية.. وباختصار، سببت لي الصدمة بعد صدمة، بعد صدمة، وأتممت ذلك بتعاقب منتظم يهدف إلى إفقادي اتزاني، أتعرف ماذا، يا لويس؟».

ـ ماذا؟

ـ ليس لديّ أي فكرة عن السبب الذي يجعلك تفعل بي هذا!



لم يجب.. هل توقعت منه هذا حقاً؟ تساءلت كارولين بمرارة وهي تستدير لتواجهه مباشرة. كان وجهه اللطيف الصلب مجرداً من التعبير.. كالعادة. استمرت واقفة، تاركة الصمت يمتد بينهما عسى أن يتنزع ذلك تفسيراً منه. وعاد ذهنها إلى الماضي ممعناً النظر في تلك الأسابيع السبعة التي ظنت فيها أن الحب ملك يديها.. أرادت الآن البحث عن مفتاح لهذا اللغز الذي يجعله يعاملها بهذا الشكل. لكن الشيء الوحيد الذي وصلت إليه، كان ذلك المشهد القبيح الذي وقع بينهما ليلة رحيلها عن ماربيا نهائياً. كان لويس واقفاً هناك، كما هو الآن، طويلاً متوتراً، بينما كانت هي تقذفه بالاتهامات الواحد تلو الآخر.

وسمعت نفسها، وهي تشهق باكية، حينذاك، وتقول: «كيف أمكنك أن تفعل ذلك، يا لويس؟ كيف أمكنك أن تلاعب أبي ليلة بعد ليلة لتربح نقوده؟».

أجابها، حينذاك، ببرودة: «ألم يخطر ببالك أن أباك هو الذي كان يحاول أن يربح نقوداً مني؟».

لم يزدها قوله إلا غيظاً. فصرخت: «أنت المحترف! أما أبي فما هو إلا أحمق سهل الانخداع».

ـ إنه مقامر مدمن، يا كارولين. مقامر مستعد للعب مع أي شخص يريد اللعب، أي شخص ما دام يلعب!

كان رد لويس قاسياً، فأجابت: «يقول إنه يلعب معك، أتريد أن تقول إنه كاذب؟».

ـ لا، لم يكذب.

لقد كان في ذلك موت حب عظيم.. تذكرت ذلك وهي تعود إلى الحاضر. لقد رحلت عند ذاك، وتركها لويس تذهب. ومنذ ذلك الوقت لم يمرّ عليها يوم لم تغمض عينيها فيه دون أن تراه كما تركته.. واقفاً تكسو ملامحه برودة الثلج.. فتتمنى، من كل قلبها، لو كانت الأمور بينهما

مختلفة.

ـ ليس لهذا علاقة بالماضي، بل بالمستقبل.

قال لويس ذلك فجأة، فطرفت بعينيها حائرة قبل أن تدرك أنه يجيب عن سؤال سبق أن وجهته إليه قبل أن تستغرق في ذكريات الماضي، وعاد يقول متكاسلاً: «أنا بحاجة إلى زوجة للحصول على القسم النهائي من إرثي، ولأنني اقتنعت أنا بوجوب ذلك، قررت أن تكون تلك الزوجة أنت، فهل يرضيك هذا التفسير؟».

لا.. لم يرضها.

وشحب وجهها: «إذن، أنا الوسيلة المناسبة».

قالت ذلك وهي ترى كم كانت سهلة الاقتناع. فهو لم يحاول حتى التودد إليها بل الأمر كل الأمر أنّه قدم إليها عرضاً لم تستطع رفضه. وقال ببرودة: «وأنا بالنسبة إليك وسيلة أيضاً، وهذا يبدو عدلاً، ألا ترين ذلك؟».

ارتبكت لا تدري ما تقول، لأنه على صواب بوصفه الأمر بهذا الشكل! ثم قال فجأة: «فلننس الآن كل شيء..».

تمهل قليلاً ثم أضاف بلهجة حاسمة: «هل يمكننا الذهاب الآن؟ لديّ ترخيص زواج في جيبي وليس علينا إلا الذهاب إلى مكتب تسجيل العقود لنتزوج».

خفق قلبها بعنف بين جنباتها فكل ما يحدث أشبه بالكابوس وكأن يداً عملاقة تجرها إلى هوّة سحيقة.

قالت والدهشة على وجهها: «زواج.. زواجنا الآن».

ـ هيا لا وقت لدي لمناقشة الأمر أكثر.. ألم أقل إن زواجنا المدني سيتم اليوم..

توقف هنيهة ثم أضاف مهدداً: «تعرفين ما معنى أن ترفضي الآن».

عندما وصلا إلى مكتب تسجيل عقود الزواج كانت تشعر بشيء من



الخَدرَ وكأن ما يحدث، يحدث لشخص آخر وفي مكان آخر.

***

ـ يمكنك الآن تقبيل العروس.

كان هذا صوت القاضي الذي ارتفع منهياً بذلك سلسلة من الوعود والتمنيات بزواج سعيد.

أحنى لويس رأسه وفي عينيه بريق لم تستطع فهمه ثم قبلها برقة بالغة فحرّك فيها رغبة بالبكاء.

همس لها: «أصبحت أخيراً لي، لي وحدي».

***

تلك الليلة كان التعب والإرهاق قد أخذ منها كل مأخذ.. جلست في السرير تفكر كيف انقلبت حياتها في يومين انقلاباً كبيراً عندما دخل لويس عائداً.

نظرت إليه وهو يضع إبريق ماء مليئاً بالثلج على المنضدة بجانب السرير قبل أن يدخل إلى الحمام دون أن ينطق بكلمة.

استلقت كارولين، غير واثقة مما عليها أن تفعله. أتهرب ما دامت الفرصة سانحة، أم تبقى مذعنة وتتركه يفعل ما يريد؟

لم تهرب، فقد كانت متعبة للغاية. وما هو إلا وقت قصير حتى خرج من الحمام لا يرتدي سوى «شورت» قصير أسود يظهر من جسمه الأسمر أكثر مما يخفي، وقد أحضر معه إلى الغرفة رائحة الصابون النظيفة والتوتر العالي لأنه بدا واثقاً من نفسه إلى حد كبير.

قالت له بفظاظة، وهو يعلق ملابسه: «لن أنام معك».

عندما تكلمت، توقف ونظر إليها ثم سألها: «أتعنين النوم العادي، أم ماذا؟».

أجابت: «أعني الإثنين، ولا أدري كيف وجدت الغطرسة التي جعلتك تظن ذلك».

لم يجب عن ذلك مباشرة، بل عاد إلى ما كان يقوم به أما هي فأخذت تتابع حركاته بقلب جَهدت أن تبطىء من دقاته.

لكنها لم تفلح في ذلك، خصوصاً عندما استدار نحو السرير وأخذ يقترب منه. كان على وجهه ذلك المظهر الحاقد الذي لا تحبه كثيراً. انحنى، مسنداً نفسه بوضع يد على الوسادة بجانب رأسها، وواحدة عند ركبتيها المثنيتين. بدا شديد السمرة، شديد الخطر، وجاداً جداً. ثم قال ببرودة ثلجية: «أنت زوجتي الآن، فإذا صممت على تجاهل ذلك فسأذكرك به بالرغم من مرض أبيك. ومن الآن فصاعداً، أريد منك أن تقنعي الجميع أنك تريدينني أكثر من أي شيء آخر في العالم، هل فهمت؟».

نعم، لقد فهمت أنها ما زالت لا تملك من الأمر شيئاً. وقالت: «إذا حاولت أن تلمسني، هذه الليلة فقد أتقيأ».

لم يعبس هذه المرة بل تنهد متعباً، ودنا رأسه منها.. اقترب إلى حد شعرت فيه بأنفاسه الحارة تلامس وجهها.

ـ إذا أنا لمستك الآن، يا كارولين، فقد تنفجرين بالبكاء ثم تلتصقين بي وكأن حياتك تعتمد عليّ.

وليبرهن على ذلك، مس شفتيها بشفتيه.. وتدفقت الدموع من عينيها عندما تركها.

لم تشعر بالغثيان.. بل بالضعف.. لم تستطع النطق بكلمة حينما مدّ لويس يده وأطفأ النور فغرقت الغرفة في ظلام دامس. وبعد ثوان كانت هناك حركة بين الأغطية قبل أن تشعر بالفراش ينخفض بجانبها.

لم يحاول مد يده نحوها، لم يحاول اجتياز الحاجز غير المرئي الذي يقسم الفراش، واستغرقت هي في النوم وما زالت تكافح مزيجاً من المشاعر تتراوح بين الإستياء المرّ والإشمئزاز البالغ من نفسها.. لأنه كان على صواب، فقد شعرت بالرغبة في التشبث به.

استيقظت بعد فترة، لكنها لم تكن واثقة مما أيقظها. ففي تلك



اللحظات الذاهلة قبل أن تتذكر أين هي، كانت واعية فقط إلى أنها ممدّدة على بطنها، منحرفة عبر السرير، شاعرة باطمئنان نفسي رائع، ما جعلها تشعر بصدمة وهي تدرك أنها ليست فقط نائمة في سرير لويس، وإنما خدها ضاغط على كتفه وذراعها تحيط بصدره.

والأسوأ من ذلك أنه كان مستيقظاً، علمت ذلك لأنه كان مستلقياً على ظهره وأصابعه تمرّ على ذراعها بخفة الريشة، كانت ملامساته عفوية أقرب إلى الملامسة بذهن غائب، وكأنه، في استلقائه بهذا الشكل محدقاً في الظلمة، قد تاه في شوارد أفكاره.

وكان ذلك ممتعاً.

ممتعاً إلى حد لم تشأ حقاً أن تنهيه، لكنها لم تكن تعلم ما إذا بإمكانها أن تستمر مستلقية متظاهرة بالنوم، لأنها أخذت تشعر بنبضها يعلو، وباتزان أنفاسها يتغير.

منذ سبع سنوات طويلة موحشة، وقعت في حب هذا الرجل الأسمر الجذاب نفسه. فيا لسخرية القدر إذ تجد نفسها بجانبه الآن في هذا الوضع. هذا الرجل الذي لم يستطع قلبها أن يحب غيره..

صدرت عنه آهة خفيفة، وتمنت هي لو تستطيع ذلك، لكنها علمت أن آهتها ستكشف اللعبة. وعند ذلك يكون عليها العودة لتدعيم دفاعاتها، فيعود إليها التوتر، وتصبح بحاجة إلى الإستمرار في مقاومته.

لكن الآهة أفلتت منها على كل حال، فكان أن حاولت أن تجعلها عذراً للإبتعاد عنه، وكأن ذلك أثناء نومها. وتحرك لويس في الوقت نفسه، وتشابكت أصابعهما في اللحظة نفسها التي انقلب فيها على جنبه نحوها، ولم تكن سرعتها في إغماض عينيها كافية، فكان الأمر وكأنها تنظر في مرآة رأت فيها صورتها العابسة المزاج. كانت عيناه سوداوين.. بسواد الليل الذي ما زال يحيط بهما.

كان يريدها، رأت الرغبة مكتوبة هناك. لقد فات وقت التظاهر

الزائف، فات وقت الهرب والاختفاء، لقد عرف ذلك كما عرفته هي.

جذبها نحوه بأصابعهما المتشابكة، وسرعان ما أخذ يعانقها بنهم. وكأنها وجدت شيئاً قد تاقت إليه طويلاً. وربما لأنها لم تقاومه ولم تحاول الإحتجاج، أطال عناقه لها مستمتعاً، وكأنه يماثلها شعوراً.

أو ربما يعود ذلك إلى الساعة المتأخرة من الليل، وشعورهما بالنعاس، يساعد على ذلك الدفء الذي شملهما لوجودهما معاً، والظلام الذي يحيط بهما.

على كل حال، كان عناقهما مختلفاً، عن أي عناق آخر تشاركاه من قبل. فقد كان بطيئاً عميقاً، رقيقاً إلى حد لا يصدق، وطال وطال حتى شعرت بأنها تسبح.. تضيع في جمال رائع جعلها ترفع يدها لتلمس وجنته.. وكأنها بذلك تريد أن تتأكد أنها لا تحلم وأنه ليس طيفاً من أطياف مخيلتها الحالمة.

وبرقة فائقة، أخذ يلمس وجهها بالطريقة نفسها. ثم بدأ هذا العناق يتغير إلى مشاعر أعمق.

أحاطت عنقه بذراعيها. إنه الشخص الوحيد الذي دخل قلبها وتربّع فيه ومنذ سبع سنوات وقلبها مشتاق إليه، ولكن هذا الابتعاد عنه جعلها غير واثقة من نفسها وأخذت تتخلل شعره بأصابعها. لقد نسيت، مؤقتاً، كل شيء. غدره الماضي، عدم الثقة الحالية.. في هذه اللحظات لم يعد لأي شيء آخر أهمية والمهم فقط هي مشاعرهما هذه.

عندما نام على جنبه وأخذها بين ذراعيه بطريقة لم تفسح لها مجالاً للهرب كانت مسرورة للظلام الذي يحجبها.

ـ أنت ملكي الآن.

قال ذلك، وكان هذا كل شيء.

ولم تزعج كارولين نفسها حتى بالإجابة. لأن إدراكها بأنها كانت دوماً ملكه لأمر لا يحتاج إلى ذكاء كبير. كانت ملكه أثناء السنوات السبع التي لم يقع نظرها عليه قط.



ـ علينا أن نرحل اليوم.

نرحل...

إنه يفعلها مرة أخرى.. يخرجها عن اتزانها بإحدى مفاجآته الصغيرة.

سألته وهي تشهق: «نرحل إلى أين؟».

ـ إلى قرطبة.

ـ وماذا في قرطبة؟

ـ وادٍ صغير في الجبال يسمى «ڤال دي لوس أنجلس» وفي الوادي يقوم «قصر لوس أنجلس» وهو من أملاك «لويس أنجلس دي ڤازكيز» «الكونت ديل ڤال دي لوس أنجلس..».

إذا ظنت أنها وصلت إلى الذروة في السخرية والتهكم، فقد أظهر لها لويس الآن قلة ما تعرفه عن فنون السخرية، واستمر يقول باللهجة نفسها: «هناك سيقيم «الكونت» عرسه في كنيسة «ڤال دي لوس أنجلس»، حسب تقاليد «كونتات دي لوس أنجلس» جميعاً، ثم يحمل عروسه إلى قصره المهيب.. في الوقت المحدد لإقصاء الساحرة الشريرة المقيمة فيه، قبل أن يستمتع بكونتيسته الجديدة.

ـ الساحرة الشريرة؟

سألته بحيرة، ملتقطة الجزء الوحيد من كلامه الساخر الذي حيّرها، فأومأ يقول: «نعم. الدونا كونسويلا إنغراسيا دي ڤازكيز» «كونتيسة ديل ڤال دي لوس أنجلس» الحالية.

ـ هل هي السيدة التي تحدث عنها زوج عمتك؟

ـ نعم. «تيو فيديل» هو رجل بالغ الفطنة والدهاء، وهو أيضاً الفرد الوحيد في أسرتي الذي يمكنك الوثوق به.

ثم أضاف جاداً: «ومن الحكمة أن تنتبهي إلى قولي هذا».

***

## ٧ ـ استراحة محارب

قال أن تنتبه إلى قوله ذاك..

ولكن بعد أربع وعشرين ساعة، كان لويس هو من عليها أن تنتبه إليه وهي تراه يزداد توتراً كلما اقتربا من «قرطبة».

جلست بجانبه وأخذت تحدق من النافذة إلى المشاهد المتغيرة على الدوام، متعجبة مما يشغل باله اليوم بهذا الشكل. فالمفروض أن يكون سعيداً، وبجانبه امرأة خاضعة له كل الخضوع، طائعة له كل الطاعة، حصل عليها بلا احتجاج بعدما استلم زمام حياتها بكل غطرسة.. حسناً، منذ تزوجا لم تُمنح فرصة للاحتجاج على أي شيء، فبعدما قضى معها تلك الليلة خرج في الصباح مع رئيس رجال أمنه، ولم تره بعد ذلك حتى مجيئه ليأخذها هذا الصباح لهذه الرحلة.

وقد جاء مرتدياً ثيابه للسفر، التي كانت عبارة عن بذلة سوداء خفيفة وقميصاً أبيض، وقد بدا عليه التوتر نفسه البادي عليه الآن، تقريباً!

ـ جهزي نفسك بسرعة. أظن أنّ بإمكانك ذلك.

كان يتكلم باختصار أقرب إلى الفظاظة، ولم يكد يعطيها فرصة للإجابة، وعندما عاد بعد ساعة اكتفى بأن ألقى نظرة سريعة عابرة إلى الكنزة الوردية الملتصقة بجسمها وإلى التنورة التبنية اللون اللتين ارتدتهما للرحلة والغريب أنه لم يسمح لنفسه ولو مرة واحدة، بمبادلتها النظر بشكل كامل. لأنه يعلم أن ذلك دعوة لها لتبدأ بالتحدث عما في ذهنها مرة أخرى. وهو



شيء لا يريده لويس، شيء لا يريده ما دام محتفظاً بذلك الحاجز طوال الرحلة. ربما هو خائف أن تسأله أين قضى الليلة الماضية، أخذت تفكر في ذلك بمرارة، فهو لم يقضها معها، والحقيقة أنه لم ينظر إليها، أما هي فنظرت إليه لترى مظهر رجل لم ينل كفايته من النوم.

لكنها هي نامت، نامت كالأطفال، ولم تفتقده قبل أن تستيقظ هذا الصباح فتجد مكانه بجانبها خالياً ممهداً كما كان حين نامت.

كاذبة.. هتف هاتف في داخلها بذلك. بل استيقظت عدة مرات لأنه لم يكن موجوداً، وأنت أيضاً قد افتقدته!

تمتم لويس وهو يوقف السيارة فجأة: «اللعنة.. فاتنا المنعطف للتو..».

ثم عاد بالسيارة إلى الخلف في الطريق التي أقبلا منها وظل يقود سيارته حتى وصلا إلى مفترق طرق عليه لافتة تشير إلى أن مكاناً اسمه «لوس أمينوس» هو إلى اليسار.

أوقف السيارة، مطلقاً زفرة ضيق، ثم أخرج خريطة طرق بسطها أمامه وأخذ يدرسها مقطباً جبينه. فعبست هي أيضاً: «ألا تعرف إلى أين نحن ذاهبان؟».

ـ لا.

لم يشجعها جوابه الفظ، هذا، على إلقاء مزيد من الأسئلة. لكن الحيرة تملكتها، فهو لا يضيع عن الطريق أبداً فذاكرته غير عادية.

ـ كم مرة سرت على هذا الطريق؟

كان إصبعه يتابع الخط الأحمر في الخريطة من ماربيا إلى قرطبة.

ـ لم أجيء قبل الآن.

إستغرق منها استيعاب ذلك الجواب لحظة. ثم لاحظت توقف إصبعه على مفترق الطريق هذا، كما افترضت وهي تنظر إلى اللافتة، وأخيراً سألته: «أتعني أنك لم تجيء إليه من ماربيا من قبل؟».

أخذ إصبعه يتحرك مرة أخرى متابعاً الخط إلى اليسار حيث كان اسم قرطبة.

ـ عنيت أنني لم أجيء إلى هنا قط.

ووصل بإصبعه إلى حيث توقف عند نقطة في الخريطة تحمل اسم «فال دي لوس أنجلس».

فوجئت بقوله هذا فالتفتت إليه: «لِمَ لا؟».

لم يجب، وإنما أخذ يطوي الخريطة، وعاد الصمت الذي رافقهما طول الرحلة، يلفهما من جديد.

ـ لويس؟

أجاب متوتراً: «لأنني كنت أعلم أنني شخص غير مرغوب فيه هنا».

ـ لكنه بيتك؟

ـ وما علاقة ذلك بكوني مرغوباً فيه؟

تبلجت الحقيقة فجأة في ذهنها، فتمتمت برقة: «تلك التي قد تسممك؟ الساحرة الشريرة المقيمة فيه؟ أرملة أبيك؟».

ـ ها قد عرفت.

ـ وهي.. تكرهك؟

حاولت قول ذلك برقة، لكنه أطلق ضحكة ساخرة: «ألا تكرهين الرجل الذي اغتصب مركز ابنك في الأسرة؟».

لدى أبيه ابن آخر؟ هل للويس أخ غير شقيق؟ وما إن استوعبت هذا الخبر الأخير حتى كان لويس يستدير بالسيارة. كان أمامهما طريق طويل مترب متعرج إندفع لويس فيه، وفي هذه الفترة، لم تستطع أن تفعل شيئاً بسبب الجو الذي أشاعه راكباها فيها. والسبب أن هناك مئات الأسئلة التي يريد كل منهما أن يلقيها على الآخر الذي يكره أن يجيب.

ـ لماذا ورثت أنت، دونه؟

أجاب ساخراً: «هل يمنع ذلك أنني أنا غير شرعي وهو ليس



كذلك؟».

احمر وجهها قليلاً لهذا الجواب الوقح. قد يكون لويس متحفظاً الآن، لكنه لم يكن كذلك منذ سبع سنوات. لقد كان، حينذاك، صريحاً جداً بالنسبة إلى شخص نشأ دون أب، وعاش في بيوت فقيرة شبه متداعية في نيويورك مع أم كافحت كثيراً في سبيل العيش. كانت تعلم أن أمه ماتت وهو في التاسعة من عمره فقط، وأنه عاش بقية صباه في المؤسسات الخيرية.

ـ اختارني لأنني أملك ثروة كبيرة بينما الأسرة مفلسة.

وبمعنى آخر، اختاره الأب وريثاً له لأنه رآه مناسباً وليس رغبة منه في ذلك. ولم تستغرب ما يبدو لويس عليه من مرارة وسخرية، وسألته: «وماذا حدث لأخيك غير الشقيق وأمه؟».

ازداد وجهه صلابة: «الحرمان والإهمال اللذان تركوني فيهما معظم حياتي».

لا عجب إذن أن يمتنع لويس طوال هذه الفترة عن استلام إرثه. فهو ليس غبياً، ويعرف تماماً ما ينتظره. لكن سؤالاً واحداً بقي لديها لم تشأ أن تتركه: «وزواجنا؟ ما علاقته بكل هذا؟».

ظنت لحظة أنه لن يجيب. فتوتر فمه وبدت الصلابة في نظراته المركزة على الطريق أمامه، ثم أجاب: «زواجنا هو الوسيلة التي أطردهم بها من البيت، فبحسب قرار والدي، يمكنهما أن يعيشا في المنزل حتى أتزوج».

عادت قسوته إلى الظهور، وبدأت كارولين تشعر بالأسف على أسرة لويس. وتملكها شعور فظيع بأن ليس لديهم فكرة عن طبيعة الرجل القادم اليوم للاجتماع بهم، وإلا لحزما أمتعتهما وخرجا قبل وصوله.

سألته بصوت أبح: «ألم تسمع قط بكلمة الغفران؟».

ـ يُعطى الغفران، عادة، لمن يريده.

كان جوابه بارعاً ذكياً، ولكنه جعلها ترتجف، وكان أن التزمت بعده بالصمت. ولم يتكلما مرة أخرى حتى وصلا إلى قرية «أمينوس» الصغيرة

الهادئة: «سنتوقف هنا لتناول الغداء».

لم تعترض كارولين، فالحقيقة أنها بدأت تشعر بالعطش والتصلّب، ولا بأس باستراحة قصيرة تقوّيهما على متابعة السير إلى حيث لا تعلم.

وجد لويس مقهى صغيراً أمامه موائد خشبية قابعة تحت مظلة باهتة الرزقة، أوقف السيارة وترجل منها يتمطى، وانتظر أن تلحق به كارولين، لم يكن «الخان» هذا مكاناً عصرياً. لكن سلة الخبز وطبق السلطة الطازجة كانا لذيذين.

طلبا دجاجاً وجلسا يأكلان. لكن الصمت ظل السائد بينهما. تناولت قطعة خبز أخرى وهي تسأله، فقط لتخترق هذا الصمت: «كم بقي أمامنا لنصل؟».

أجاب باختصار وهو يتناول الخبز: «بعض الوقت».

كان النهار حاراً والهواء رطباً. لقد كذبت إذ قالت أنها نامت جيداً الليلة الماضية، فالآن تأثير عدم النوم يسري فيها. سألها: «متعبة؟».

ـ إنها الحرارة، والرحلة. أين نمت الليلة الماضية؟

كادت تقطع لسانها وهي تلمح البريق المفاجيء في عينيه.

تمتم برقّة: «هل افتقدتني؟».

ـ لا، لقد نمت كلوح خشب.

قال بصوت أجش: «حسناً، أنا افتقدتك».

رفعت بصرها بحذر تظنه يمزح، لكنه لم يكن كذلك. وسرعان ما تغير الجوّ بينهما، فقد أخذ ينظر إليها نظرة عميقة مشبعة بالرغبة.

حوّلت نظراتها بسرعة لأن مشاعرها توترت وقلبها أخذ يخفق.

قال: «يمكننا أن نذهب إلى مكان ما».

فكادت تختنق بالخبز، أتراه قال حقاً ما سمعت؟

ـ عليك فقط أن تقولي: «نعم...».

آه، هذا غير معقول.



همست: «لا، يا لويس».

وأخطأت إذ عادت تنظر في عينيه.

إذ التهبت مشاعرهما. كان يريدها، يريدها الآن، وقالت بصوت خافت: «كفّ عن ذلك».

وشعرت بوجنتيها تتوهجان. ومدّت أصابع مرتجفة إلى طبق السلطة، وإذا بيدها تصطدم بيده التي كان يمدّها إليها.

وكأنما مست شريطاً مكهرباً، فأبعدت يدها بسرعة وهي تشهق بحدة.

وفعل لويس أكثر من ذلك، فقد أطلق شتيمة قصيرة بصوت خافت، ثم هبّ واقفاً.

لم تعرف ما الذي حدث بينهما، فقد دس يده في جيبه، وأخرج بعض النقود التي ألقاها على المائدة قبل أن يمدّ يده ليمسك بيدها.

وهذه المرة لم يكن ثمة مجال لنزع يدها لأنه لم يسمح لها بذلك، فقد ارتدّ على عقبيه يسير بخطوات واسعة، في الطريق الترابي تحت أشعة الشمس يجرها خلفه وكأنها ولد متمرد يريد أن يعاقبه.

أرادت الاحتجاج.. أن تسأله إلى أين يأخذها فالسيارة واقفة في مكان آخر! لكن العنف البالغ الذي كسا ملامحه لم يجعلها تجرؤ على النطق.

وقف فجأة وهو يشد على يدها، ثم استدار ليدخل إلى ردهة فندق صغير.

ـ لويس.. لا.

استطاعت أخيراً أن تقول هذا، لاهثة لأنها أدركت ما يريد.

لكنه تجاهلها كلياً، بدا وكأن شيطاناً يسوقه. كان وجهه متوتراً وفكه منقبضاً، وشعرت بوجنتيها تتوهجان خجلاً، وهو يفاوض في استئجار أحسن جناح في الفندق بسعر الساعة.

كان الأمر فظيعاً، أكثر المواقف التي مرت بها في حياتها إرباكاً.

أخيراً أعطاه الموظف المفتاح فاتجه إلى الدرج، وعندما أخذ يصعد، جاراً

إياها خلفه، قالت بصوت مختنق: «لا أصدق أنك تفعل هذا».

لكنه لم يزعج نفسه بالجواب. فقد كانت ملامحه من العنف بحيث شعرت بالخوف وهو يقودها إلى فسحة السلم ثم يفتح باباً ويدفعها إلى داخله.

كان الفندق صغيراً وبسيطاً، ولم يكن في الغرفة أكثر من سرير ومنضدة وكرسيين. ولم يكن هناك مكيف يلطف الحر الخانق. ولكن، ما إن انغلق الباب خلفهما، حتى فقدت الاهتمام بمظهر الغرفة، إذ كانت مخطوفة الأنفاس.

سألته وهي تخلّص يدها من يده أخيراً: «ماذا أصابك؟».

لم يجب ولم يكن بحاجة إلى ذلك، لأنها علمت ما حدث له، فقد كان ذلك مرتسماً على وجهه.

وقفت مبهورة الأنفاس، تنتظر ما سيحدث، وهي ترى النار والثلج يمتزجان فيه.. النار في عواطفه المحمومة، والثلج كوسيلة يتحكم فيها في نفسه، كل ذلك حرك في كيانها ما لم تكن تعلم بوجوده.

ـ لويس، هذا ليس..

لكنه أمسك بمعصميها يقطع عليها حديثها، ثم وضعهما حول عنقه، كان يتصرف بعنف وقوة في المشاعر لم تعرف معه ما إذا كان شعورها بالإثارة سببه هذا، أم الخوف المجرد. لكنها لم تحاول الهرب منه، وكان في ذلك الجواب على حيرتها.

ـ لويس..

همست بذلك بعجب.. فهي لا تفهم هذا الرجل مقدار ذرة. فهو، أحياناً، بارد للغاية، قاسٍ في مطالبه. لكنه الآن مختلف، وكأنه يبدو مرغماً.

ـ أنا بحاجة إليك.

كان هذا كل ما قاله قبل أن يحني رأسه ليعانقها بنهم، وبعد ذلك لم يعد



أي شيء مهماً.

كان السرير ينتظر. وعندما استلقيا عليه، عبقت رائحة الملاءات النظيفة المنشاة حولهما.. رائحة زادت، بشكل ما، في بهجة كل شيء، رغم أن كارولين لم تفهم السبب.

مرّ بهما الوقت بسرعة، ونسيا إلى أين كانا ذاهبين.. أو ربما تناسيا. فهذا لم يبد لهما مهماً.

بقيا في الفندق طوال العصر وقد ناما فترة. في أحد الأوقات جرؤت على السؤال: «لماذا، يا لويس؟ لماذا نحن هنا بهذا الشكل؟».

أجاب متذمراً: «أنت دوماً تسألينني (لماذا)».

ـ هذا لأنك دوماً تفاجئني بأمور لا أتوقعها.

قال مكشراً: «حسناً، أليس الجواب هذه المرة واضحاً؟ فأنت، من الجمال، بحيث لا أتمكن من مقاومتك.. ومن الإغراء بحيث لا أستطيع ضبط نفسي في رحلة معك دون التوقف أثناءها..».

وانحنى يقبلها، لكنها تعلم أن قوله هذا وإن كان يرضي غرورها ليس هو السبب الحقيقي لوجودهما هنا.

لقد أثارت شيئاً ما أثناء الغداء حين ألمحت إلى افتقادها إياه الليلة الماضية. وتمنت لو بإمكانها أن تفهم ذلك الشيء، لأنها، عند ذلك، قد تستطيع فهم لويس.

وأخيراً قررا، كارهين، أن يستأنفا المسير ليصلا قبل حلول الظلام. خرجت للاستحمام، وعندما عادت وجدت الشمس قد تحوّلت عن هذه الناحية من المبنى ففتح لويس النافذة ليدخل الهواء النقي، وكان يقف بجانب منضدة عليها صينية تحتوي على طبق شطائر وإبريق ماء مع الثلج.

ـ همم.. أرى أن صاحب الفندق شغل نفسه.

التفت إليها باسماً وهو يملأ كوبي ماء، وقال: «لم نكمل الغداء، في الواقع، وبما أن العادة في أسبانيا أن يتأخر العشاء، فقد فكرت في طلب

طعام خفيف قبل الرحيل».

أخذت قطع الثلج تقعقع وهي تنزل من الإبريق إلى الكوب، فجعلها سماع ذلك تتقدم نحو الطعام. لم تدرك مقدار ما هي عليه من عطش حتى سمعت هذا الصوت، وقالت وهو يناولها كوباً: «شكراً».

فقال: «هذه شطائر جبن وزبدة وعسل، تفضلي».

ثم ذهب بدوره إلى الحمام تاركاً كارولين تصب الماء وتنظر حولها.

ما كان من قبل مجرد ظلال غامضة مغرية، بدا الآن أشكالاً ممتعة في الضوء المتدفق من النافذة. لون الجدران الأخضر الباهت بدا عليه تقادم الزمن، والبسط المشغولة يدوياً كانت تغطي الأرض. والسرير بدا قديم الطراز، أمّا المصباحان الموجودان على جانبي السرير، فقد يُجلبان ثمناً جيداً في سوق بضائع ما قبل الحرب.

هذه مهنتها، بهذه فكرت ساخرة وهي تختار شطيرة وتجلس على كرسي لتأكلها، ولأن المصباحين أعجباها أخذت تفكر في الثمن الذي يمكن دفعه فيهما، ومن ثم انتقلت أفكارها إلى مكان آخر لم تكن تريد التفكير فيه حالياً.

أحبت الغرفة بشكل عام. وأدركت السبب لأن هذه الغرفة ستبقى دوماً، في ذاكرتها، إنه المكان الذي وجدت فيه سكينة النفس مع لويس. فهي تحبه، وتريده وتريد أن تبقى له زوجة مهما كان نوع استغلاله لها في الماضي، أو في الحاضر.

قد لا يستطيع لويس أن يبادلها الحب، ولكنها تعلم على الأقل أنه يرغب فيها بكل جوارحه وهي مستعدة للعيش معه على هذا الأساس.

عاد إلى الغرفة بعد أن اغتسل وارتدى ثيابه، فخفق له قلبها.

تناول شطيرة وجلس على الكرسي الأخير وهو ينظر حوله: «إنه ليس قصراً».

قالت باسمة: «لكنه حسن، أنا أحب الفنادق الصغيرة المنعزلة مثل



هذا».

فقال ساخراً: «التي هي عكس فنادق الخمس نجوم المكيّفة المرفهة؟».

ـ لهذه الأمكنة روحاً، فهي تخفي، في خزائنها المظلمة، أسراراً.

قالت ذلك باسمة وهي تفكر بأسى، بأنها أشبه بسرّها.

ـ يمكنها أن تحدث عن قصص مضت. هذه الكراسي مثلاً، من أول من جلس عليها؟ من أهرق محبرته على هذه المنضدة الرائعة؟

قالت ذلك وهي تمرّ بيد رفيقة على البقعة السوداء.

ـ أتراها امرأة؟ هل كانت تكتب رسالة وداع لعاشقها وقد أعمتها الدموع فاصطدمت يدها بالمحبرة؟ أم هو رجل؟

قالت ذلك برقة فائقة وقد شردت عيناها وهي تنسج قصة بطريقة يعرفها أبوها، لأنها كانت تقوم بها على الدوام، لكنها كانت جديدة على لويس، فسمرته وهو ينظر إلى تلك الرقة في وجهها ويستمع إلى صوتها الحالم.

ـ أتراه كان مستغرقاً في كتابة روايته الشاعرية الطويلة بحيث أهرق الحبر أثناء شروده؟

قال ساخراً: «الشيء نفسه قد يحدث في فندق بخمس نجوم».

لكن كارولين هزت رأسها: «لو أهرق الحبر على هذه المنضدة في أحد فنادقك لاستُبدلت بمنضدة جديدة في طرفة عين، ليس في ذلك روح، يا لويس، لا روح أبداً».

قال باسماً: «أنت تحبين، إذن، كل الأشياء القديمة، خاصة العائب منها».

ـ أحب أشياء قديمة، عائبة أحياناً. كما أحب الجديدة إذا أوحت لي بقصص، أحب الشعور بالمتعة.

ـ حسناً، بإمكاني أن أعدك بالمتعة في المكان الذي نحن ذاهبان إليه؟

عادت السخرية فجأة، فمدت كارولين يدها تمسك بيده وهي تقول

ضارعة: «لا، يا لويس.. لا تفسد ذلك».

نظر إلى يدها على يده، وبقيت ملامحه متحجرة لحظة ما لبث أن تنهد بعدها وهو يقلب يده ليمسك بيدها، ثم وقف وجرها لتقف معه.

كان عناقه رقيقاً وكأنه يعتذر إليها.

اقتربت منه لتعانقه طويلاً، تراجع، وقال وملامحه مغلقة: «علينا حقاً أن نذهب».

وأدركت أن الوقت الذي انسجما فيه كل الانسجام انتهى.

***



# ٨ ـ قصر الكونت

بعدما تجاوزا «لوس أمينوس»، قطعا مسافة عشرين ميلاً أخرى قبل أن يصلا إلى وجهتهما. وكانت المناظر حولهما تتغير كلما تقدمت السيارة، من سهول منبطحة بين التلال المنخفضة إلى تضاريس طبيعية وعرة، حيث تتخذ التلال شكل الجبال المغطاة بالغابات.

تغير أيضاً نوع الطريق التي يمران عليها، إذ ضاقت كثيراً حتى كادت لا تتسع إلا لسيارة واحدة خاصة عندما بدأت السيارة بصعود مرتفع شاهق شديد الإنحدار كان يحتضن جبلاً من ناحية تاركاً منحدراً صخرياً يهبط في واد عميق مكشوف على ناحية أخرى.

سألته كارولين وقد شعرت بأنهما لن يصلا أبداً: «كم بقي لنا لنصل؟».

أجاب وقد عاد إليه التوتر واشتدت قبضته على عجلة القيادة.

ـ الوادي التالي.

فكرت بصمت أنه لا يريد العودة إلى هنا. لا يريد أن يقابل أناساً سبق أن صمموا على الكراهية والعداء له، وكان ثمة نذير سوء والجوّ أصبح بارداً وها هي ترتجف وتدعك ذراعيها العاريتين، عندئذ سارع لويس يشغل جهاز التدفئة قائلاً: «كان عليك أن تحضري معك سترة».

ابتسمت آسفة: «لو كنت أعلم إلى أين نحن قادمان، لفكرت في ذلك».

ـ هناك دثار في المقعد الخلفي إذا كنت . . .

ـ بل أنا بخير .

طمأنته برقة، متمنية لو كان بمقدورها وصفه بالشيء نفسه، لكنه بعيد عن أن يكون بخير، فتملكها القلق، إذ كلما ازدادا صعوداً، ازداد توتراً .

قالت مقترحة: «يمكنك دوماً أن تقوم بلفتة ودية وتسلم كل شيء لأخيك غير الشقيق ثم تترك كل شيء» .

هزّ رأسه، قائلاً: «هذا ليس وارداً» .

ـ ألأنك تشعر بأنه مدين لك بالسنوات التي كنت لا تملك فيها شيئاً بينما هو يملك كل شيء؟

ـ بل لأنه فقط ليس وارداً .

كرر ذلك بصوت متوتر أنذرها بأنها تنخس بالعصا حيواناً شديد الخطر .

تنهدت ولاذت بالصمت، وكانا الآن يسيران بين جبلين مرتفعين . ورأت كارولين أنهما إذا لم يصلا إلى الوادي بسرعة، فالمكان الوحيد الذي يبقى لهما هو الذي ما بعد ذلك الجانب من الجبل لأنهما لن يستطيعا الصعود أكثر من ذلك . ثم، ودون إنذار، حدث الأمر أخيراً . فقد استدارا حول منعطف حاد، ليجدا نفسهما فجأة يسيران في شق في الجبل . . ولاح لهما القصر .

كان أجمل مكان رأته كارولين في حياتها .

قالت بصوت خافت: «أواه، يا لويس!!» .

أما هو فبدا عليه الجمود عدة لحظات . . قبل أن يوقف السيارة .

جلسا، بعد ذلك، لا يفعلان شيئاً سوى التحديق برهبة، مخطوفي الأنفاس .

إنه قصر «فال دي لوس انجلس» . . مستحيل أن يكون غير ذلك، قالت كارولين في نفسها إنها تراه في أجمل اللحظات حيث شفق الغروب



يتدفق كاللهب فوق المنحدرات المعشوشبة، مضفياً على مناظر قعر الوادي الفسيح لمساتٍ سحرية .

تحتهما مباشرة، كانت مجموعة من المباني البيضاء التي صبغتها حمرة الشفق، قائمة حول كنيسة صغيرة قامت وسط ساحة القرية، ومن هناك، في موازاة الوادي، كان جدول ماء يتسلل برقة قرب طريق مشجّر .

وهناك، انتصب أمامهم القصر وكأن كل حكايات الجن الخرافية قد حدثت فيه . كان قصراً أبيض الجدران، سقفه من القرميد الأحمر، ذا أبراج أسطوانية وجسر يجري تحته جدول المياه، وينتهي أمامه الطريق الترابي .

همست كارولين: «إنه الجمال بعينه» .

وتصلب جسم لويس بحدة، وكأن صوتها أيقظه من حالة ذهول، لكنه لم ينطق بكلمة . بل تحرك بالسيارة التي سارت بهما مرة أخرى وقد أحاطت به موجة جديدة من التوتر أبقت لسان كارولين معقوداً .

لم يكن النزول إلى الوادي مخيفاً كالصعود إليه . وبدلاً من المنحدرات المخيفة، أخذا يهبطان بشكل متعرج عبر جلالٍ مزروعة انتشرت على جانبي الطريق، وكلها خضراء خصبة .

استقرت بهما الطريق أخيراً في قعر الوادي خلف القرية مباشرة . وكان دخولهما إلى القرية شيئاً مختلفاً تماماً، كان الناس خارج بيوتهم يتمشون أو يتحدثون إلى جيرانهم، بينما الكلاب تنبح حول أطفال يلعبون، إن الأمر أشبه بدخولهما عالماً آخر . وبدا كل شيء في هذا المكان، غير حقيقي، الناس البسطاء السود العيون والشعر، والبيوت البيضاء الحسنة البناء بأبوابها ونوافذها المتألقة الألوان .

وازداد هذا الإحساس مع وقوف الأشخاص في الطريق يحدقون إليهما وهما يمران بهم .

فكرت كارولين في أنهم يعرفونهما، أو، على الأقل، يعرفونه هو . واستغربت وهي تراهم يحدقون بفضول من نوافذ السيارة إلى جانب وجه

لويس المتجهم.

قالت بهدف التخفيف من كل هذا التوتر: «هل علي أن أبدأ بمناداتك بلقب «كونت» الآن؟».

فأجاب متجهماً: «جربي لقب «الابن غير الشرعي».

وهنا فرغ صبرها، لأن لويس وهو مشغول بالتفكير في نشأته، لم يكن يرى ما يراه هؤلاء الناس وهم ينظرون إليه. لقد كانوا يرون وجهاً لطيفاً أسمر متكبراً لشخص منهم، كانوا يرون شعرهم الأسود الحريري وبشرتهم السمراء وعيونهم البنية الداكنة تقول، بوضوح تام، هوذا واحد منا. لم تكن ملامحهم ساخرة أو عدائية.. أو تعبر عن الازدراء حتى، بل كانوا فضوليين فقط.

إذا كان ثمة ما يذكر، فهو النظرات التي تلقتها منهم، فقد كانت غريبة كلياً بشعرها الأشقر ولونها الناصع البياض وعينيها البنفسجيتين. فشكلها لم يكن مألوفاً إطلاقاً.

عندما وصلا إلى ساحة القرية حيث الكنيسة الصغيرة اللطيفة الشكل، انتبه الجميع إلى شاب ركض يقطع الساحة إلى الكنيسة. وبعد ذلك بلحظة، خرج كاهن مرتدياً جبّته السوداء البسيطة. كان طويلاً ونحيفاً، ذا شعر أبيض يحيط بوجهه المتغضن. أخذ ينظر إليهما، وهما يمران، بذكاء رزين شعرت معه كارولين بوخز في قلبها.

سألت بصوت مختنق: «هل هذه هي الكنيسة حيث يُفترض أن نتزوج دينياً؟».

أجاب لويس: «نعم».

ـ ألا تظن، أن علينا أن نتوقف، أو على الأقل أن نمضي النهار مع الكاهن؟

تضمن سؤالها اللهفة واللوم معاً، لأنها لا تريد أن تجرح هؤلاء الناس. وكانت واثقة من أن لويس عندما يتمكن من أن يهزم ذلك الذي يقتله ببطء،



فسيندم حتماً لأنه جرح أي شخص، هو أيضاً.

هز لويس رأسه المتجهم، ولم يدع عينيه تتحولان عن الطريق أمامه، ولو مرة واحدة، وهما يجتازان الساحة وسط صفين من المشاهدين.

ولم تبد عليه الراحة عندما تركا القرية ومرّا بين صفوف أشجار الفاكهة المنتظمة من برتقال وليمون وخوخ ومشمش. سألت برهبة، وهي ترى كل ما يمكن أن تقدمه الحياة من ثراء: «كيف يمكن لمكان كهذا أن يفلس؟».

أجاب لويس ساخراً: «بسبب تبذير وإسراف مالكيه السابقين».

ـ لا أحد (يملك) شيئاً كهذا، إنهم مجرد حراس له مسؤوليتهم تنحصر في العناية به بأجمعه أثناء إدارتهم له. وإذا لم يستطيعوا أن يروا ما يجب أن يكون له من شرف وامتياز، فهم يستحقون أن يفقدوا حق رعايته.

قال ساخراً: «تتحدثين كسيدة أملاك حقيقية. ربما علي أن أبدأ حياتي من جديد وأتنازل لك عن كل شيء».

ـ يمكنك أن تسخر مني كما تشاء، يا «كونت»، ولكن إن كنت لا تستطيع فهم ما أعني، فعليك أن تفعل ذلك حقاً.

ـ هل انتهت المحاضرة؟

ـ نعم، لقد انتهيت.

وتنهدت، وهي تتساءل بضعف عما يجعلها تزعج نفسها بالاهتمام به. فهذا الرجل لا يقتنع بأي شيء لا يناسب وجهة نظره!

ـ هذا حسن، لأننا وصلنا، وأشعر كأنني في جهنم..

طعنها هذا الاعتراف المدهش في صميم قلبها، فالتفتت تنظر إليه فهالها شحوب وجهه وتقلص ملامحه فنظرت، بشكل آلي، إلى حيث كان ينظر.. فارتعدت.

ذلك أنهما، وهما يتبادلان الكلمات اللاذعة، وصلا إلى نهاية البستان وسارا فوق الجسر المتحرك إلى تحت قنطرة مدخل يخترق جداراً أبيض يحيط بأرض القصر الخاصة.

لم تر في حياتها قط شيئاً كهذا، كان يبدو مذهلاً من فوق الجبل، ولكن، من هنا، من قعر الوادي وعن هذا القرب، بدا القصر السحر بعينه بجدرانه البيضاء التي غمرتها حمرة الشفق.

كان ذا جمال رائع مثير. الحدائق المنظمة، التي كانا الآن يجتازانها، تخطف الأنفاس. وطريق السيارة ينتهي إلى فناء مبلط في وسطه بركة مستديرة فيها تمثال «نبتون» يتدفق من فمه الماء، ويحرس مدخل القصر الفسيح المزين بقنطرة.

أوقف لويس السيارة فنزلا منها دون كلمة ثم وقفا ينظران حولهما.

وتمتمت تقول: «يا لها من حماقة!».

التفت إليها مقطباً بحيرة: «ماذا؟».

ـ أعني القصر، لا يبدو كما يُفترض به أن يكون.

ـ ما الذي جعلك تقولين هذا؟

بدا عليه الجهد وهو يدفع بنفسه إلى النطق، ولكنه ما إن فعل ذلك حتى تبدد بعض ذلك التقلص الفظيع من ملامحه.

ـ انظر حولك، ليس من سبب يدعو لبناء قصر حصين هنا في الوادي، فالجبال نفسها هي التي تحصّن هذا المكان. لو أردت أن تحصن ما هو لك، لكان عليك أن تقيم البناء هناك في أعلى الجبل الذي جئنا عن طريقه، هذا..

وأشارت برأسها إلى القصر: «أُقيمَ لكي يرضي غرور شخص غريب الأطوار».

وعادت تنظر إلى القصر «إنها حماقة، لكنها حماقة رائعة».

وأضافت لنفسها بصمت، أن هذه الأسرة أخطأت في دفع نفسها إلى الإفلاس نتيجة بذخها وإسرافها، ولكنهم على الأقل احتفظوا بالقصر الذي أصبح الآن ملكاً للويس، ونظرت من فوق السيارة إلى هذا الرجل الذي هو مزيج معقد من ثقافات مختلفة جعلته يخفي شخصيته الحقيقية.. ولعله هو نفسه لا يدري ما هي حقيقته بالذات.



ـ إنهم يراقبوننا.

أجابت: «أعلم هذا».

نعم لقد شعرت بأعين تخترق جسدها من خلف زجاج النوافذ منذ اللحظة التي نزلا فيها من السيارة.

ـ ما الذي تريد أن تعمله الآن؟ تقرع الباب وتطالب بالبيت؟ أم نتصرف بشكل أكثر تهذيباً وننتظر حتى يدعوننا إلى الدخول؟

وفيما كانت تقول ذلك ساخرة، انفتح الباب خلف التمثال الكبير «نبتون». خفق قلبها، وخلفها بجانب السيارة سمعت قدمي لويس تحتكان بالحصى، ودون أن تفكر، دارت حول السيارة ووقفت بجانبه.

عند ذلك بدا رجل في عتبة الباب. كان قصيراً نحيفاً كبير السن، لا يبدو في ملامحه ما إذا كان يرحب بهما أم يدخلهما، كارهاً، إلى حرم القصر المقدس.

فقالت كارولين برقة: «حان وقت المواجهة».

ـ هذا ما يبدو.

وافقها على ذلك ثم أمسك بيدها وكأنه يريد أن يسندها معنوياً، ولكم شعرت بالراحة وهي ترى لويس فازكيز العنيد يعود مرة أخرى ليحل مكان ذلك المتوتر المتضايق الذي انتهى أمره.

دارا حول النافورة معاً ثم صعدا إلى الباب. وتمتم الرجل العجوز بجمود وهو يحني رأسه قليلاً: «مرحباً بكما. تفضلا بالدخول من هذا الاتجاه».

وقف جانباً ليتمكنا من الدخول أمامه. وعندما انغلق الباب خلفهم وجدا نفسيهما في مدخل فسيح مبني من الحجر ومن خشب السنديان وأمامهما سلم حجري يبلغ اتساعه ثماني أقدام. كانت الجدران الخشنة المكسوة بالجص مطلية باللون المشمشي، فأضفى ذلك دفئاً إلى مظهر الضيافة الباردة التي ينطق بها المكان.

بدأ قلب كارولين يخفق، لكن قبضة لويس اشتدت على يدها. كان معتاداً على قاعات الإستقبال الواسعة.. معتاداً على الوقوف بين الأشياء الرائعة الجمال. لكن الأمر هنا مختلف، فهنا ماضيه يواجه حاضره. حتى هي نفسها، التي عرفت دوماً مكان جذورها، شعرت بمدى أهمية هذه اللحظة بالنسبة إليه.

ومع ذلك، كان صوته هادئاً رقيقاً وهو يلتفت إلى الرجل قائلاً: «من أنت؟».

سأله بلهجة الكونت النبيل الأصل، ما جعلها تشعر بالفخر به وهي التي تعرف ما يشعر به في داخله.

أجاب الرجل باحترام: «أنا بيدرو، يا سيدي. رئيس الخدم».

لم يبدُ في صوته إدانة للويس كونه ابن ڤازكيز غير الشرعي. وكان الرجل يتابع قائلاً: «أرجو منكما أن تتبعاني..».

ثم قادهما على أرض حجرية ملمّعة مارّين ببذلتين من الدروع وكأنها تحرس السلم. كما كانت هناك قطع فنية منتشرة في كل مكان في الردهة جعلت رأسها يدور وقد استيقظت فيها روح المهنة، وكأنما أحس لويس بذلك، فسألها متكاسلاً: «هل هنا ما يكفيك من «روح المهنة؟»».

ـ شيء ممتع.

قالت ذلك باسمة وهي تقترب منه عندما فتح بيدرو باباً ضخماً ثم انحنى لهما بأدب يدعوهما إلى الدخول: «السيد لويس ڤازكيز وزوجته».

أعلن ذلك لمن في الداخل، ولم يفت كارولين أن رئيس الخدم لم يشر إلى لويس بلقب «الكونت».

وإذا كان لويس لاحظ هذا الإغفال، فهو لم يظهر ذلك. كانت ملامحه مسترخية ويده تمسك بيد كارولين، وخطواته الواسعة تجتاز غرفة الجلوس الرائعة الجمال، حيث تحتل مدفأة ضخمة الجدار بأكمله تقريباً.. وهناك وقفت امرأة تنتظر قدومهما.



كانت صغيرة الجسم رشيقة سوداء الشعر والعينين. ترتدي «طقماً» ذا لون رمادي فضي مظهره الفولاذي يشبه التعبير البادي على وجهها وهي تبادل لويس نظرته الباردة.

مضت لحظة طويلة مخيفة، بعد أن خرج بيدرو مغلقاً الباب خلفه، لم ينطق أحد أثناءها بكلمة، وأخذ الإثنان يتفرسان في بعضهما بعضاً، وكارولين تشاهد ما يحدث حابسة أنفاسها.

نطقت المرأة أخيراً: «مرحباً».

أجاب بلهجة رسمية متكلفة: «تشرفنا، يا خالتي..».

وقطبت كارولين حاجبيها وهي تفكر في السبب الذي يجعل لويس يناديها بكلمة خالتي! فمن المؤكد أنها زوجة أبيه.

ـ تبدو شبيهاً بأبيك.

ـ وأنت تشبهين أمي.. لكن صحتك أفضل بكثير مما كانت عليه صحتها حين رأيتها للمرة الأخيرة.

كان حديثاً تجمد برودته الدم، وكذلك حلاً للغز الذي حيّر كارولين فهذه المرأة أخت والدته. ولا عجب أن تشتد قبضته على يدها. ما الذي حدث هنا منذ ثلاثين سنة؟

ثأر وثراء.. تذكرت الآن فجأة ما قاله مرة. وبدأت تفهم ما حدث، وأكثرها يدور حول أختين، ورجل واحد، وكل هذا..

مسّ وجه المرأة شحوب طفيف. لكن عينيها لم تطرفا، وأجابت: «كانت سيرينا شاعرية حمقاء، يا لويس. وأنت لن تجعلني أشعر بالذنب لالتقاط ما داست عليه بغباء».

أجفلت كارولين حين كاد لويس يسحق أصابعها. ولئلا يتصرف لويس بعنف، قالت له بمرح: «قدمني، يا لويس».

مضت لحظة ظنت فيها أنه سيتجاهلها، لكنه قال باقتضاب: «كارولين، هذه أخت أمي وأرملة أبي، الكونتيسة دي ڤازكيز».

بادرت المرأة المتصلبة الوجه بابتسامة مشرقة:

ـ مرحباً. ما أشدّ سروري لقدومي إلى هنا، القصر رائع الجمال، أليس كذلك؟ لكنني لا أظنه قديماً جداً.

أدركت أنها تثرثر كالمعتوهة، لكنها لم تهتم بذلك ما دام بإمكانها تغطية العداء الذي يتسلل بينهما.

ـ يبدو من طراز القرن الحادي عشر، ولكنّه على ما أظن يعود إلى القرن السادس عشر فقط.

فجأة تدخل صوت قائلاً: «بل السابع عشر، تملكت جدنا يوماً نوبة غضب لكرامته الجريحة لأن رجلاً آخر فاز بيد سيدة معينة بسبب كبر حجم بيته، وكان أن قرر جدي بناء القصر هنا في الوادي وبنى لنفسه هذا المبنى المهيب، ثم تزوج شقيقة تلك السيدة الصغرى والتاريخ في هذه الأسرة يعيد نفسه دائماً، كما ستعلمان حالاً.

جمدت كارولين في مكانها عند سماعها هذا الصوت المألوف لديها. ثم ظهر رجل طويل أسمر جذّاب من الناحية الأخرى لغرفة الاستقبال المستطيلة.

توقف ثم ابتسم وهو يرى ملامحها الذاهلة ثم تجاهل لويس كلياً وتابع بالثقة بالنفس ذاتها، تلك التي نفّرت كارولين منه كثيراً عندما رأته للمرة الأولى، قائلاً: «فيليب دي ڤازكيز، في خدمتك سيدتي».

إنه الرجل الذي قابلته في المصعد في فندق لويس في ماربيا، وابتسم لها بتكاسل: «لم نصل قط إلى حد التعارف، أليس كذلك؟».

ـ نعم، يا سيد...

أقرت بذلك ولم يجعلها تصافح يده الممدودة إلا التهذيب. وكانت يده باردة ناعمة.

ـ فيليب، من فضلك.. بتنا من أسرة واحدة على كل حال.

اقتربت قليلاً من لويس ويدها تتوتر في يده بشكل غريزي.



أدركت وهي تقارن بين قبضة لويس الساحقة ليدها، وقبضة أخيه نصف الشقيق الناعمة ليدها الأخرى، أدركت أي القبضتين تشعرها بالأمان، لكنها عادت فتذكرت آخر مرة قابلت فيها هذا الرجل، وما أحست به حينذاك من أنها إذا حاولت الهرب منه، فقبضته ستشتد بشكل مؤلم.

قالت بأدب: «فيليب».

ثم سحبت يدها من يده وبسطتها على صدر لويس، كان هذا منها إعلاناً واضحاً عن علاقتهما الحميمة بشكل لم يغفل عنه حتى لويس، وقالت باسمة: «لويس، أليست هذه مصادفة غريبة؟ لقد قابلت أخاك في الفندق ولم يكن لديّ فكرة أنه قريب لك».

قال لويس بلهجة مطاطة: «نعم، يا لها من مصادفة!».

كانت لهجته أكثر نعومة وكسلاً من أن تكون حسنة. ولأنها تعرف لويس وطبعه، تعرف أنه كلما اشتد غضبه كلما ازداد هدوءاً.

هل أدرك فيليب ذلك يا ترى؟ هذا ما فكرت فيه عندما تحوّلت عينا فيليب أخيراً لتشتبكا بعيني أخيه الذي طال ضياعه، وقال باسماً: «إذن، فقد اجتمعنا أخيراً».

أخيراً؟ صدمت كارولين هذه الكلمات. لقد رأت فيليب في الفندق وهذا يعني أن لويس رآه. ألعله لم يره وقتذاك؟ أو يعلم بوجوده هناك.

ويبدو أنه لم يكن يعلم بوجوده، إذ أجاب لويس بجفاء: «ربما ليس قبل الوقت المناسب».

أصبح الجوّ فجأة معقداً بفوضى المشاعر التي اضطربت في أنفسهم، هم الثلاثة.

كان هناك ثلج.. ثلج كثير.. وفضول كبير.. كان هناك خصومة مشتركة تولدت عن منافسة أخوية متفجرة حيث أخذ الرجلان يقوّمان وزن بعضهما بعضاً.

لم تتأكد أيهما كان الفائز في تلك المعركة الصامتة لكنها تعلم بشكل مؤكد أيهما في مركز القوة بصرف النظر عن الحركة الفكرية.

ـ مرحباً بك في بيتك، يا لويس.

قال ذلك بابتسامة فيها شيء من السخرية أدركت هي منها أن فيليب أقرّ لأخيه الشيء نفسه، مسلماً له بالتفوق، ومتابعاً: «مع التمنيات بأن تكون السنوات العشرون القادمة من حياتك، أسعد وأقوى حظاً من سنواتك العشرين الأولى..».

وكان هذا قولاً قاسياً شهقت له حتى أمه. وهذا ما فعلته كارولين وهي تقبض على قميص لويس بأصابع متوترة، وكأنها تحاول أن تهدىء الوحش قبل أن يقفز.

لكن لويس، لدهشة كل منهم، ضحك قائلاً: «فلنأمل جميعاً هذا.. وإلا وقع هذا المكان في متاعب جمّة».

وربح لويس الجولة، لكن الظاهر أنه لم ينته بعد إذ تابع بصوت هادىء: «وهذا يذكرني بأنني بحاجة ماسة إلى التعرف إلى هذا المكان قبل زفافنا الديني الأسبوع القادم. فهل نبدأ بجولة في الأنحاء قبل أن نجلس للقيام ببعض الحسابات المتعلقة بالمنزل...؟».

***



## ٩ ـ هوية الحب

كانت كارولين جالسة بهدوء عند نافذتها المواجهة لغرفة الضيوف، عندما سمعت قرعاً خفيفاً على بابها، ومضت لحظات فكرت فيها بألا تجيب.

كانت أياماً فظيعة تلك التي مرت بها، أياماً مليئة بالتوتر والقلق والعيون التي كانت تراقب كل ما تفعله وكأنهم يخافون أن تهرب بفضيّات البيت!

وفوق كل هذا، استلم لويس المسؤولية هنا وكأنها مجرد مكسب جديد بين مجموعة مكاسبه الدولية. فهو هادىء، متزن، بارد.. ورجل أعمال مثالي. كان الناس.. خصوصاً موظفوه، في غاية الرهبة منه. كانوا يتراكضون في الأنحاء كأرانب صغيرة مذعورة متلهفة إلى إرضائه. وإجمالاً، كان التغيير الذي قام به، كافياً لجعل أيّ كان يشهق عجباً.

لكن هذا لم يكن مكان عمل، بل بيت، وإن كان بيتاً غير عادي. ولكن كيف لها إظهار ذلك لرجل لا يكاد يعترف بوجودها؟

فلويس لم يكن يكلمها. إنّه غاضب لسبب تجهله.

أحسّت بأن مزاجه هذا عائد إلى مقابلتها أخاه قبل أن يقابلها. لقد سألها عن ذلك اللقاء الذي حدث بالصدفة.. لا، لم يكن سؤالاً بل كان استجواباً، ماذا قال؟ وكيف قاله؟

وعندما غضبت وسألته لماذا هذا الأمر مهم بهذا الشكل، ابتعد عنها

بكل بساطة. وبعد ذلك بخمس دقائق رأته واقفاً خارج القصر وعلى أذنه هاتف خليوي. أياً كان المتحدث إليه، فقد تلقّى من لويس توبيخاً غاضباً، وقد استطاعت أن تلاحظ ذلك من هذه الغرفة وهي تنظر إلى الظلام في الأسفل.

منذ ذلك الحين، لم تقع عيناها عليه إلا في أوقات تناول الطعام على المائدة مع آخرين، بحيث لا تستطيع محادثته عما يزعجه، حتى إنهما كانا ينامان في غرفتين منفصلتين. والحقيقة أن موقفه البارد منها قد جرحها، مع أنها ترفض الاعتراف بذلك.

عاد القرع على بابها، فنهضت وهي تتنهد، وسارت لتفتح الباب، فإذا هي إحدى الخادمات الصغيرات التي تمتمت قائلة: «المعذرة سنيوريتا. أرسلتني «الدونا» لأخبرك أن الكاهن هنا وهو يريد محادثتك».

- لا بأس، شكراً أبريل. هل لك أن تخبريه بقدومي بعد دقائق؟

أين هو لويس؟ تساءلت بقلب مثقل ودخلت حمامها. لكنها تعرف أين هو لويس.. أو على الأقل أين ليس موجوداً، فلويس ليس هنا في الوادي، إذ رحل بالطوافة التي وصلت لتأخذه هذا الصباح، ولم تره أو تسمع عنه منذ ذلك الحين.

محط الطائرة الطوافة هو أحد الإنشاءات التي أحدثها لويس منذ قدومه إلى هنا.. فقد أحضر عشرة رجال من القرية مهّدوا بقعة من الأرض في أقصى الحديقة حتى قبل أن تنهض كارولين من فراشها ذلك الصباح الأول.

ومما أحدثه أيضاً بسرعة لا تصدق هي سارية لاسلكي للإتصالات البعيدة على رأس الجبل لكي يحسّن من إرسال القمر الصناعي، وقد شرح ذلك أثناء العشاء. ويبدو أن ليس بمقدوره إدارة مجموعته المتعددة الجنسيات من دون وسائل اتصال جيدة.

لكنه لم يستعمل هذه المبادىء في حياته الخاصة مع الأسف.

لم يفعل ذلك، وجدت أن عليها أن تذهب بمفردها لمواجهة الكاهن،



فلويس لم يزعج نفسه ببحث ذلك معها!

وهذا سيجعلها تبدو جيدة جداً في نظر الكاهن! خاصة بعدما يكشف أنه يعلم عن ذلك أكثر مما تعلم العروس نفسها!

سأقتلك في أقرب وقت، يا لويس فازكيز! توعدته بصمت وهي تتفحص تنورتها التبنية اللون وبلوزتها الوردية التي لا تبدو بحالة جيدة جداً.

عندما غادرت لندن، أحضرت معها ملابس تكفيها لثلاثة أيام وليس بينها ملابس لحفلات ولرحلات طويلة، أو لاستكشاف غرف قصر كثيرة العدد!

وجدت الكاهن ينتظرها في غرفة الجلوس الصغيرة التي تحب الأسرة استعمالها في النهار لأنها تؤدي مباشرة إلى الحديقة. كانت الخالة كونسويلا تنتظر معه، لكنها ما إن قدمت كارولين إلى الكاهن دومينغو، حتى تركتهما بمفردهما.

في الحقيقة، إن كارولين تشعر بالأسف على كونسويلا. فقد فقدت زوجها في الأشهر الأخيرة، ورأت ابنها يُحرم من وراثة كل ما تعتبره حقاً له، وهي خسرت حقها في العيش في بيتها الذي أمضت فيه الأعوام الثلاثين الأخيرة. ثم أصبحت الآن في بقائها هنا، تأخذ ما يريد لويس أن يلقي به إليها، والواقع أن هذا كله مؤثر حقاً.

هي، شخصياً، ما كانت لترضى لنفسها بهذا. الكبرياء وحدها كانت ستجعلها تهرب قبل أن يحضر ابن أختها الحاقد. لكن تلك المرأة أجابت ببرودتها وجفائها المعتادين عن كل أسئلة لويس الدقيقة العنيفة عن إدارة القصر، وأحالته بسرعة إلى أولئك الذين كانوا يعرفون المزيد عن إدارة بقية المزرعة.

أما ابنها فلم يفعل شيئاً ولم يقدم أي معلومات، بل عزل نفسه وذلك بركوبه أحد جياده الأندلسية الرائعة كل صباح، وبقائه حتى يحلّ الظلام.

انتقل فيليب من حالة الظُرف البالغ إلى العزلة والشرود الدائم. كان بإمكانه البقاء هنا، كأمه، ولكنه على عكسها لم يستطع إخفاء استيائه البالغ.

ولم تكن كارولين تلومه لهذا الشعور، فمهما كان حق لويس القانوني في وجوده هنا، فإن فيليب معذور لما يتملكه من غضب ومرارة لغدر أبيه به.

تمنّت فقط لو أن بإمكانها أن تشعر نحوه بمودة أكثر على الصعيد الشخصي، عند ذلك قد تستطيع التوسط بين الأخوين، فتقرّب بينهما بشكل ما.

حيّاها الكاهن دومينغو باسماً: «يسعدني جداً التعرف إليك أخيراً».

فابتسمت وصافحته قائلة: «لقد ذهبت لزيارتك أمس فلم أجدك».

ـ كنت أزور كاهناً زميلاً في الوادي القريب، فنحن نحب الاجتماع معاً أسبوعياً لبحث أمور الرعية. لكنني أسفت لعدم وجودي حين زرتني.

دعته إلى الجلوس بعد انتهاء المجاملات، وهي تسأله: «هل يمكنني تقديم شيء لك؟ شاي، قهوة، أم أي شيء بارد؟».

هز رأسه، مشيراً إليها بالجلوس قبله، وعندما جلسا على مقاعد «لويس الخامس عشر» سألها: «هل أعجبتك كنيستنا الصغيرة؟».

أضافت مبتسمة ابتسامة حارة: «إنها أجمل كنيسة دخلتها، وكذلك الوادي كله».

قال: «لكنها منعزلة جداً».

فقالت مازحة بالابتسامة نفسها: «وهذا جزء من سحرها».

ـ وكذلك.. كاثوليكية متدينة للغاية..

فغابت ابتسامتها: «وهل ذلك سيكوّن مشكلة؟ فأنا غير كاثوليكية».

وتابعت تفكر بصمت: «أين أنت يا لويس؟ كان عليك أن ترى هذه المشكلة!».

أخذ الكاهن، ينظر إليها مفكراً: «هل هذه مشكلة بالنسبة إليك؟».

أجابت بصراحة: «فقط إذا طلبت مني التحول عن مذهبي».



هز رأسه: «لا، لا أطلب منك تلك التضحية.. كما أتمنى ألا تطلب كنيستك الإنكليزية الشيء نفسه من لويس لو انعكس الوضع. أترين؟ إننا متحررون هنا.. حتى في وادينا الصغير النائم».

ـ ولكن هنالك مشكلة، كما يبدو؟

ـ المشكلة تتعلق بالإخلاص أكثر منها بالدين، سأتكلم بصراحة. أعرف أنكما، أنت والسيد لويس، تنويان تبادل العهود المقدسة التي قد لا تكون صادقة، وهذا ما قد تكون نهايته مشؤومة..

مشؤومة؟ تمسكت كارولين بهذه الكلمة تتأملها مقطبة الجبين، وقد انتبهت فجأة إلى أين سينتهي الكاهن بها: «هل تريد القول إن كل زواج يُعقد في كنيستك هو زواج حب؟».

سألته هذا وهي تعلم أنه ـ إذا كان هناك ـ زواج من دون حب، فهو موجود في أسبانيا!

ـ في هذه الحالة بالذات، ما يهمني هو فقط زواجك من السيد لويس. فقد تقابلتما للمرة الأولى منذ خمسة أيام فقط، كما قيل لي. وبعد ساعات من ذلك اللقاء أعلن السيد لويس رغبتكما في الزواج، ما جعل أباك ينهار مصدوماً، كما سمعت أن أباك مدين للسيد لويس بمبلغ كبير، ثم سارعتما للزواج مدنياً ربما لتسهلا عليكما أمر الطلاق إذا شئتما يوماً فهل وراء هذه اتفاقية؟

بدا الذهول في عينيها: «ممن سمعت ما سمعت؟».

ـ مصدر معلوماتي غير مهم. ما يهمني هنا هو أنت، جئت إلى هنا اليوم والقلق يساورني عليك لأنك أُرغمت على هذا لأسباب فوق طاقتك.

قالت متحدية وهي تنهض واقفة غير متوقعة أن يبحث أمورهما الخاصة بهذا الشكل: «أتقول إنك ترفض أن تزوجنا أنا ولويس؟ أم لعلك ترفض لأننا تجرأنا على الزواج مدنياً أولاً؟».

فنهض واقفاً بدوره تأدباً: «لا، فالسيد لويس هو «الكونت» الجديد هنا

في هذا الوادي. فإذا طلب مني أن أزوجه إلى سيدة مكممة ومقيدة إلى جانبه لفعلت ذلك».

وهز كتفيه باسماً بسخرية: «وهكذا ترين أن العادات القديمة لم تمت كلياً».

وابتسم لها. لكنها لم تكن في مزاج تبادله فيه ابتسامته، فقالت ببرودة: «إذن، دعني أرح ذهنك، معلوماتك مغلوطة لأننا أنا ولويس، نعرف بعضنا بعض منذ سبعة أعوام، وأنا أحبه منذ ذلك الوقت».

ولم يكن هذا كذباً تماماً ولا حقيقياً تماماً. لكنه، في هذا الوضع، يخدم مصلحتها كثيراً.

دهشت وهي ترى أن الكاهن وافقها على تصحيحها هذا، كما أنه لم يقلقه، وأجابها على الفور: «وهل (أحببت) السيد لويس حقاً مدة سبعة أعوام؟».

ابتسمت نصف ابتسامة فيها من الأسى أكثر مما فيها من السخرية، أجابت بجفاء: «الطالما أحببت لويس. ولكن إذا كنت ستسألني عما إذا كان شعوره نحوي متبادلاً، فلا تفعل، رجاء».

أجابها فوراً: «إذن، لن أفعل طبعاً».

وبان الاعتذار في عينيه لأنه جعلها تضيف التعليق الأخير، لمس يدها برفق، قائلاً: «سامحيني لتطفلي على ما ترينه أموراً خاصة، ولكن عليّ أن أتأكد من حبك للسيد لويس قبل أن أنفذ أمنية أبيه الأخيرة».

أمنية أبيه الأخيرة؟ وبدا الفضول في عينيها، لكن الكاهن ابتعد متجهاً إلى منضدة بجانب الباب، وضع عليها حقيبة أوراق لم تلحظها: «سأسلمك الآن شيئاً عليك الاعتناء به، سيدتي.. شيئاً أريد أن تعديني بأن تحرسيه بحياتك ولا تسلميه لأحد..».

جعلتها هذه الكلمات تشعر بالخوف فجأة. وقالت له: «إذا كان شيئاً يسبب الضرر للويس، فابقه معك».



أجاب وهو يعود إليها وبيده عدة دفاتر صغيرة: «رغبتك في حمايته تستحق المديح. هذه ستؤلم السيد لويس فعلاً إذا رآها. لكنه مستثنى بالتأكيد من الوعد الذي أريد منك القسم عليه. هل تقرئين الإسبانية كما تتحدثينها؟».

أومأت كارولين. منذ طفولتها وهي تمضي أكثر عطلات الصيف في أسبانيا، ما يعني أن الأسبانية أصبحت لغتها الثانية.

- إذن، بعدما تقرأي هذه، أترك لك خيار أن تطلعيه على ما هو مكتوب فيها..

وأخذ يدنو منها، فأوشكت لخوفها، أن تخبيء يديها خلف ظهرها، وكأنها لا تريد تسلمها. ورأى هو ذلك في عينيها فتوقف وهو يقول: «هذه يوميات والد السيد لويس، تركها في عهدتي قبل أن يمرض بوقت طويل، إنها تفسر السبب الذي جعله يورث السيد لويس كل شيء ويورث السيد فيليب القليل. خذيها واقرأيها وافهميها.. لمصلحة لويس، أرجوك..».

ثم ناولها إياها برزانة، فتقبلتها هي كارهة، بأصابع باردة، وبقلب كأنه استحال إلى حجر. لم تعلم لماذا لم تفهم ما يتضمنه كل هذا. لكنها تعلم أن هذه الدفاتر هي أشياء مظلمة.. مظلمة وفظيعة. وقالت تعده: «سأقرأها».

أومأ الكاهن متفهماً التعبير البادي على وجهها، ثم ارتدّ على عقبيه. وعندما وصل إلى الباب توقف ونظر إلى الخلف فرآها تقف حيث تركها وبين يديها الدفاتر، فتمتم مفكراً: «أتعلمين يا آنسة؟ أظنها مصادفة غريبة أنك تعرفت إلى السيد لويس منذ سبعة أعوام، لأنه، في ذلك الوقت تحديداً، وافق على القدوم إلى هنا ومقابلة أبيه لأول مرة، ولكنه لم يلبث أن غيّر رأيه فجأة. أما سبب هذا التغيير، كما قال، فهو أنه تعرف إلى امرأة وسيتزوجها. كان حبه لها على ما يبدو، أهم لديه، حينذاك، من مقابلة أبيه: لكنه وعد بأن يتزوجها في كنيسة «قال دي لوس أنجلس» حسب

التقاليد. ويبدو أنه سيفي بوعده».

وابتسم، وقبل أن تعقّب على هذه المعلومات الجديدة ابتعد قائلاً: «اقرئي هذه اليوميات وتعرفي إلى هذا الرجل الذي أحبك، بقدر ما أحببته أنت على ما أظن».

بعد ذلك بساعات، تمنت لو أنها لم تقرأ اليوميات. تمنت لو أن أسرة ڤازكيز بقيت كما هي، بعيدة عن حياة لويس.

أخفت الدفاتر على سطح خزانة ثياب كبيرة في غرفتها، ثم خرجت إلى الحديقة في حر الظهيرة حيث غرقت في أفكار سوداء حافلة بالآلام والغدر، والتضحية القاسية بطفل بريء من أجل طفل آخر.

(التاريخ يعيد نفسه) هذا ما قاله فيليب. وكان لويس قد دعاه (ثأر وثراء) أما كارولين فتسميه (ما لا يقبل الصفح). لو علم لويس نصف ما اكتشفته في هذه اليومات، لما كان غريباً أن يعزل نفسه داخل حجاب غير مرئي منذ قدومه إلى هنا. فهذه الأسرة كانت سمّاً لكل من يلمسها، وهذا ما ذكرها بنصيحة زوج عمته الطبيب (خذ معك من يذوق الطعام) فقد كان هو أيضاً يعلم أن هناك سمّاً في هذا المكان الرائع الجمال.

الشيء الوحيد الجيد في هذه اليوميات، هو إثبات قول الكاهن عن نية لويس نحوها منذ سبعة أعوام. ولكن لهذه الحقيقة أيضاً جانبها السام. ذلك أنه إذا كان لويس قد أحبها حينذاك، لماذا كان يذهب بجرّ والدها إلى الإفلاس، ليلة بعد ليلة؟

وعندما سمعت صوت الطوافة يهدر فوق الجبل، تمنت لو بقي لويس بعيداً. فهي ما تزال متكدرة ومشوشة جداً، وفي حاجة إلى مزيد من الوقت للتفكير، للاستيعاب، والتصميم على مقدار ما ستخبره به.. هذا إذا قررت أن تخبره بشيء على الإطلاق.

عندما حطت الطائرة على مطارها المهّد حديثاً، وجدت نفسها واقفة هناك تنتظره، وعندما وضع قدمه على الأرض اليابسة، عصف قلبها بمشاعر



مختلفة لم تستطع التفريق بينها.

بدا وهو مرتد بذلة عمل رصاصية اللون وقميصاً ناصع البياض وربطة عنق فضية، واحداً من ملوك المال الحقيقي.. من النبلاء الحقيقيين. والحقيقة أن من ينظر إلى وجهه الأسمر اللطيف المتكبر المزهو، لا يصدّق أبداً أنه أمضى السنوات العشرين الأولى من حياته يعيش عيشة الكفاف.

بدا كئيباً وكأنه أصبح يحمل فجأة كل هموم العالم. كانت تعرف جيداً هذا الشعور، إذ سبق أن عاشت مثله. هل هي مسؤولية هذا المكان؟ هل النحس المهلك بجماله يصيب كل قادم إلى هنا؟

فجأة شعرت أنها بحاجة ماسة إلى أن تكون قريبة منه.. كما شعرت بالحاجة إلى الابتعاد عن هذا المكان، ولو لمدة قصيرة، لكي تفكر، لكي ترى الأمور بأبعادها الصحيحة.

ماذا فعلت؟ في اللحظة التي غادر فيها الطائرة، سارت نحوه فما إن رآها حتى توقف وأخذ ينظر إليها وكأنه يرى حلم حياته، ولكن سرعان ما اختفت هذه المشاعر من عينيه كالعادة.

ولأنها بحاجة إلى ذلك، طوقته بذراعيها وقبلته بلهفة. لمست دهشته وتوتره، ومرت لحظة هائلة ظنت فيها أنه سيدفعها عنه.

ثم طوقها بذراعيه بشدة وأخذ يعانقها بمثل لهفتها.

شعرت وكأنها وجدت نفسها بعد ضياعها في مكان مظلم أياماً لا نهاية لها، مهما كان بينهما، لم يكن يعني شيئاً.. فهذا هو الصحيح دوماً.

قطع العناق الذي ودت لو بقي إلى الأبد، ولكن عينيه السوداوين نظرتا إليها بعبوس، متأملاً شحوبها الشديد الذي لم يبدده حتى عناقهما هذا.

ـ ماذا حدث؟ ومن كدّرك؟

هزت رأسها: «لقد اشتقت إليك، وهذا كل شيء.. افتقدتك أياماً، لكنك لم تلحظ ذلك كما يبدو».

قال بخشونة: «بل لاحظت، فكرت فقط في أن من الأفضل أن أتركك

لنفسك فترة لكي . . تعتادي على كل هذا . . ».

ـ لا أحتاج إلى وقت لأعتاد عليه، لديّ مثله في وطني إنكلترا، إذا كنت تذكر، لكنني أعترف أنه ليس بحجم هذا. ولكن . . يا لويس . .

ولم تستطع إخفاء التوتر في صوتها: «هل يمكننا الابتعاد من هنا لمدة قصيرة؟ نحن الإثنين فقط، وفي مكان عادي؟ هل يمكن أن تأخذنا هذه الطائرة، ولو لساعتين فقط؟ أرجوك».

تنهد: «أنت لا تحبين هذا المكان».

ـ بل أعشقه.

أصرت على ذلك، عالمة أنها كذبة وأنها هي، في هذه اللحظة بالذات، تكره هذا الوادي وكل شيء فيه.

ـ أنا بحاجة فقط إلى الابتعاد عنه لفترة قصيرة. هل أطلب الكثير؟

ـ لا.

كان ما يزال عابساً لأنه أدرك أنها ستخبره بالحقيقة الكاملة، أشار بيده إلى الطيّار يطلب منه إبقاء المحرك دائراً.

ـ أين تريدين الذهاب؟ إلى ماربيا؟ يمكننا أن نكون هناك في . . .

لكنها هزت رأسها: «هناك مكان صغير أعرفه، مكان سري».

همست بذلك وعيناها تلمعان بالمشاعر: «هناك أنعم فراش في العالم، لا تكييف هواء، والحمام في آخر الردهة، وفيه أروع الملاءات الباردة المنشاة على السرير ولن يكون هناك أي وجه بارد . . . ».

كان يحدّق إليها وكأنه يقنع نفسه بأنها تلمّح إلى ما تشعر به حقاً. وحبست كارولين أنفاسها منتظرة جوابه.

أهو القبول أم الرفض؟ لم تستطع التأكد، فهو يسخن ثم يبرد، يقدم ثم يتراجع . . وأشعرها صمته بالتوتر.

ثم رفع حاجبه والسخرية في عينيه: «هل هذه هي طريقتك في التصرف كسيدة محترمة، في دعوتك إياي لقضاء عطلة أسبوعية؟».



بدا لها وقحاً بتفسيره وهذا ما ألهب وجنتيها بحمرة الخجل . . لكنها بادلته ابتسامته، قائلة: «أظن ذلك. ولكن إذا كنت تفضل صحبة أسرتك، فأنا مستعدة للوصول إلى تسوية . . ».

ألقى برأسه إلى الخلف وأخذ يضحك، وكان هذا أجمل صوت سمعته منذ أيام. وعم السرور قلبها وهو يمسك بيدها عائداً بها إلى الطائرة ضاحكاً.

لم ير أي منهما أخاه وهو يراقبهما من بين الأجمة، ولا رأى أي منهما ذلك الوميض الخبيث في عينيه وهو يراهما يستقلان الطائرة ليحلقا بعيداً.

نزلا في ساحة مكشوفة خارج «لوس أمينوس» بالضبط ثم سارا إلى داخل القرية يداً بيد. لاحظت كارولين أنهما بدَوا غريبي الشكل فلويس في بذلة بالغة الأناقة بينما هي في تنورة تبتية وبلوزة وردية.

كان صاحب الفندق نفسه موجوداً، فاستدارت عيناه وهما يدخلان من الباب. وعند رؤيته المبلغ الكبير من المال، نظر إلى لويس نظرة مليئة بالإحترام وأحضر للزوجين الشابين مفتاح الغرفة حيث السرير نفسه بالضبط.

ـ وأنا أرتدي حتى الملابس نفسها.

همست كارولين بذلك إلى لويس وهما يصعدان السلم يداً بيد. فأضاف مازحاً: «والوردة الحمراء نفسها على كلتي وجنتيك».

وعمق لون الورد أكثر عندما أدركت جرأة ما طلبته.

لم يعودا تلك الليلة إلى القصر. فقد ضاعا في مشاعر لا قرار لها وكأن الواحد منهما لا يرتوي من نبع الآخر . . أو كأن حاجة أحدهما للآخر نهر لا يتوقف عن الجريان أبداً. كانت تشعر بأنها استعادت حبيباً فقدته ليس مرة فحسب بل مرتين. راودتها تلك الأفكار وهي تتذكر تلك الأيام القليلة الماضية التي أحست فيها بالوحدة.

همست له في إحدى اللحظات قائلة: «أنت حبي الحقيقي الأول».

خيمت على نظرته مسحة داكنة وهو يفتح جفنيه الناعسين، ويقول: «ربما لن تصدّقي كلامي هذا، لكنك حبّي الحقيقي الأول أيضاً».

لكن لا! لا يمكن أن تتقبل هذا الكلام، لأنه لو أحبها لما حاول أن يربح كل فلس من عائلتها. جالت تلك الفكرة في رأسها فأحست بحزن عميق أرادت أن تدفنه في الحال. فأمسكت بلويس وأدنته منها في عناق عنيف.

ربما شعر بحزنها، أو لمح مسحة الحزن على وجهها قبل أن تمحوها، لأن عناقهما تحول إلى إعصار من الأحاسيس الغنية، وجرفهما معاً، ليلقي بها في بحر متلاطمة أمواجه لم تَغفُ على شاطئه إلا بعد وقت طويل طويل.

وعندما قررت أن تفتح عينيها، وجدت نفسها متقوقعة قرب لويس، ورأسها يستريح على كتفه، والليل يرخي سدوله.

قالت بدون أن يظهر عليها القلق: «لم نُعلم أحداً برحيلنا».

أجاب: «أرسلت الطيّار ليبرّر غيابنا. سنعود متى شئنا، عندها يمكنهم أن يتوقعوا حضورنا».

بدا، بقوله هذا، متعجرفاً ومتسلطاً وسيداً على الوادي، إلى حد جعلها تضحك. فقال لها: «هذه أول نبرة سرور حقيقي أسمعها منك منذ تقابلنا مجدّداً».

زمّت شفتيها باستياء: «وماذا كنت تتوقع؟ وأنت لم تفعل سوى تخويفي وابتزازي؟».

المفروض أنها مزحة، لكن لويس لم يبتسم، وبدلاً من ذلك بقيت عيناه تتفحصانها، ثم قال بهدوء: «لم أحضرك إلى هنا، الليلة، بالتخويف».

ـ لا.

بل هي التي أخافته هذه المرة.

ـ هل أنت مستعدة لتخبريني الآن عما دعاك للرغبة في الهرب بهذا الشكل؟

إذن، فهو يعلم أنها لم تكن تخبره بالحقيقة في القصر. فخفضت نظراتها



وأخذت ترسم بإصبعها دوائر على صدره، ثم قالت بصراحة: «استقبلت زائراً، كاهن القرية».

جمد لويس في مكانه، ثم سألها بهدوء بالغ: «وبعد ذلك؟».

ابتسمت: «أراد أن يعلم ما إذا كان زواجنا مجرد تظاهر».

ـ هل هدّد بعدم تزويجنا كنسياً؟

ـ لا. لقد أكد لي، في الواقع، أنه إذا جاء إليه «الكونت» وعروسه بجانبه مكممة ومقيّدة، فهو سيزوجهما.

ـ لماذا جاء إذن؟

هنا السؤال الآن. وضحكت بأسى وهي تمرر أصابعها في شعرها: «لكي ينبهني إلى شائعات.. تدور في الوادي عن مقدار الإخلاص في مشاعر أحدنا تجاه الآخر».

ـ شائعات؟

أومأت: «نعم، يقولون إننا لم نتعارف إلا منذ أيام قليلة».

ـ وماذا قلتِ له؟

لم تتحرك عضلة في وجهه، وأسوأ ما في لويس هو قدرته على الكلام من دون أن يبدو على وجهه أي تعبير يكشف ما يفكر فيه.

ـ أخبرته أن هذه المعلومات غير دقيقة، وأننا تعارفنا منذ سبع سنوات، ثم كذبت قليلاً وأخبرته أنني أحبك منذ ذلك الحين...

لكنها تذكرت أنها، عندما قالت ذلك، لم تشعر أنها تكذب. بل هذه هي الحقيقة.

ـ وماذا قال بعد ذلك؟

نظرت إليه بجفاء: «أنت ماهر جداً في الاستنطاق».

رفع حاجبه وبدا لها مغرياً جداً، وقالت: «الاستنطاق الأسباني. أنت في الواقع تذكرني بصنبور يقطر منه الماء، إنك تقطر الأسئلة بثبات ومن دون هوادة حتى تعلم ما تريد».

كرر من دون أن تتغير نظرته: «ماذا قال؟».

نظرت بعيداً وتنهدت، لأن الحقيقة أفلتت من زمامها. ثم هناك مشكلة أخرى أخذت تقلقها منذ زيارة الكاهن.

- حاول على ما أظن أن ينبهنا إلى أن ثمة شخصاً يكيد لك. شخصاً يشيع في الوادي أننا، أنا وأنت، شخصان مخادعان.. كي لا يحترمنا أحد. الشائعة الأخرى هي أنك اشتريتني من أبي. والآن، من يعلم بهذا عدانا؟ أنا وأنت؟

- أتظنين أنني كنت أنسج حكايات عنا؟

كان هذا قولاً سخيفاً ضحكت منه، وقالت وهي تتنهد: «ما يقلقني يا لويس أن هناك من يتجسس علينا، ومجرد التفكير بهذا الموضوع يجعلني أقشعر».

- الجاسوس في هذه القضية معروف، يا عزيزتي. ونحن نعرف أيضاً أن لديه بعض الحق في الشعور بالمرارة وهذه المرارة هي ما جعلته ينشر شائعات قد تضعف مركزنا، والواقع أنني سأسمح له ببعض السلوك الأحمق.

كان يتحدث عن فيليب، فقالت موافقة: «لا بأس».

وتكوّمت بجانبه، شاعرة بحاجة إلى قول المزيد، لكنها خافت من أن يجرها هذا إلى قول الكثير.

- لا بأس؟ هذا كل شيء؟

قالت وهي تدسّ نفسها به: «هذا أجمل من أن نفسده بالحديث عن الأشياء البشعة، وعلى كل حال، في ذهني اهتمامات أخرى كثيرة حالياً».

برقت عيناه، والتهكم الذي رأته في عينيه جعل دمها يجري ساخناً.

فقالت ساخرة: «التسوّق. أفكر في شراء ملابس جديدة، إذ أنك اختطفتني بملابس لا تكفيني أكثر من ثلاثة أيام. أريد ثوباً أبيض غالي الثمن بكل ملحقاته، فأنا أريد أن أظهر في الكنيسة بأبهى حلة».

ضاقت عيناه قليلاً وكأنه يحاول أن يقرأ في ما قالته عودة إلى المرارة



الماضية.

ولكنه لم يقرأ شيئاً، وسرعان ما أخذها بين ذراعيه.. وهذا ما كانت تفضله كثيراً على الحديث.

مكثا في غرفة ذلك الفندق المظلم الحار القديم الطراز طول الليل، وناما بين ذراعي بعضهما بعضاً واستيقظا في الوضع نفسه. وللمرة الأولى تستيقظ كارولين فتجده بجانبها وقد ترك ذلك فيها تأثيراً مؤلماً.

في اليوم التالي سافرا إلى قرطبة حيث أخذت تتسوق حتى كادت تسقط منهارة.

كانت متألقة، لعوباً.. وفتنت مرافقها، وعندما كان ينظر لويس إليها باستغراب، وكأنه يحاول أن يفهم ما الذي جعلها تتصرف بهذا الشكل، كانت هي تبتسم له فقط أو تقبله، أو تطلب منه المزيد من المال، متجنبة أي سؤال.

فكيف يمكنها أن توضح لشخص مثله أنها عرفت لويس قازكيز الحقيقي أخيراً بعد قراءتها ليوميات أبيه؟ إنها تفهمه الآن، وتتألم لأجله، وتحبه حباً ما كانت لتتجرأ على الشعور به.

وإن لم يحبها لويس بالمقدار الذي تحبه هي، فسيكفيها هذا القدر.. فقط لأن الأمر الآخر الذي عرفته من خلال قراءتها لليوميات هو أن الحب لا يمكن أن يكون متساوياً في قلبي حبيبين.

* * *

## ١٠ ـ حق السيد

عندما عادا إلى الوادي وجدا أن هناك بعض التغيرات حدثت أثناء غيابهما. إذ زُينت الحديقة بأضواء خفية كما نُظف القصر ومائدة الولائم شُيّدت في الردهة الرئيسية. وما إن دخلا حتى جاءهما صوت فيليب المتكاسل: «أراكما تهربان من كل المتاعب».

هذه عادته، بهذا فكرت كارولين وهي تقترب خطوة من لويس الذي أمسك بيدها، بينما تابع فيليب ساخراً: «على العروسين ألا يهملا تفاصيل العرس.. عليهما ألا يهملا زينة الإحتفال».

كان تهكمه لاذعاً. وتمنت كارولين لو تضربه لكلامه اللئيم. لكن لويس قال باسماً من دون اهتمام: «إن الفندقية في دمي، فإن كان هناك ما أحسنه، فهو إقامة الحفلات».

ـ ويساعدك في الإحتفال الأهل والأقارب المجتمعون حولك. ما أغرب ما تدفع العلاوة السنوية الناس إلى القيام بأشياء ما كانوا يقومون بها في العادة.

سأله لويس بفضول: «هل هذا هو السبب في تسكعك هنا وهناك فيليب؟ لكي تؤمن علاوتك السنوية؟».

قال: «لديّ أموالي الخاصة».

ولكن لويس أصاب منه عصباً حساساً بقوله ذاك.

ـ لم يحرمني أبي من كل شيء.



ـ لا، بل ترك لك أرضاً في نيقادا والوسائل التي تمكنك من النجاح في استغلالها، هذا إذا أزعجت نفسك بالمحاولة.

ـ بينما أنت حصلت على كل... هذا...

وارتسمت على فم فيليب ابتسامة كريهة، ثم التفت إلى كارولين فجأة: «أخبريني..».

شعرت بأنه حان دورها لتتلقى لسع لسانه القذر، وقال: «كيف انتهت اللعبة بين أبيك ولويس؟ كان هناك أناس كثيرون لا بد أنهم كانوا متلهفين لمعرفة النتيجة».

كان هناك في الكازينو عندما تحدى لويس أباها، بهذا فكرت كارولين ووجهها يشحب، ثم التوت يدها في يد لويس بتوسل صامت لكي يجيب عنها.

شدّد قبضته قليلاً، لكنه أدهشها عندما لم يقل شيئاً بل رفع يده الأخرى وإذا بڤيتو يمثل أمامهم فجأة، ضخماً عريض المنكبين، ذا بنية تسحق الصخر، وانتظر أن يكلمه لويس.

وقال له هذا الأخير من دون أن يحوّل نظره عن فيليب: «اصحب كارولين إلى غرفتها، يا ڤيتو، وابق هناك حتى أحضر...».

اقشعرّ جسم كارولين لأنها شعرت بأنه يريد أن يوجّه إلى فيليب نوعاً من الإنذار الرهيب، وكان وجود حارسه الخاص كافياً لجعلها تلوذ بالصمت. ترك لويس يدها وهو يقول بهدوء: «اذهبي مع ڤيتو. لدينا، أنا وفيليب، أشياء علينا أن نتحدث عنها على انفراد..».

ذهبت، لكنها شعرت بالغثيان. لم تنظر إلى الخلف، لكنها استطاعت أن تشعر، تقريباً، بالرجلين وكل واحد منهما يقوّم حجم الآخر وكأنما يستعدان لمعركة.

همست لڤيتو: «ماذا سيحدث؟».

أجاب ببساطة: «سيتحدثان، كما قال لويس».

قالت وهي تقترب قليلاً من هذا الرجل الأشبه ببرج ضخم: «إنه لا يعجبني».

ـ قليل من الناس من يعجبهم.

وكان هذا كل ما أجاب به، ولكن ما قاله بدا وافياً. أدرك كل من لويس وڤيتو شخصية فيليب، فإذا كان فيليب قد حقق في أمرهما، فهما أيضاً قاما بالشيء نفسه.

لم يتركها ڤيتو بمفردها حتى عندما ذهبت إلى الحمام، وعندما عادت وجدته واقفاً بجانب الباب. سألته: «هل تعرف لويس منذ وقت طويل؟».

أجاب: «منذ كنا في التاسعة، نحن الإثنين».

وفكرت أن هذا يعني أنهما كانا في ملجأ الأيتام معاً.

ـ إذن فأنتما صديقان.

وابتسمت وهي تتذكر أفكارها عندما كانت مع لويس في السيارة وڤيتو يقودها.

قال: «لقد أنقذ حياتي مرة».

ولم يزد، على الرغم من أن كارولين حدقت إليه بعدم تصديق لأنها لم تستطع أن تتصور أن على أي شخص أن ينقذ حياة هذا الإنسان. فقد كان من الضخامة بحيث لا يمكن أن يتعرض لمثل ذلك الخطر.

عند ذلك بدأت المشتريات التي ابتاعتها تصل، فتحول انتباهها عن ڤيتو. وبعد ذلك بدقائق جاء لويس، وهمس كلمة هادئة لڤيتو ثم صرفه فذهب وهو يومىء متجهماً، ما جعل كارولين ترتجف، وعندما انفردت به سألته: «لماذا الحاجة إلى حارس خاص؟ هل أنا عرضة لخطر ما؟».

ـ لا، هذا غير وارد ما دمت حياً أرزق.

ـ إذن، فأنت هو المعرّض للخطر.

ـ لا أحد هنا معرض للخطر.

فقالت بعناد: «لماذا الحارس إذن؟».



ـ إنه مرافق، وقد أرسلته ليرافقك إلى هناك إثباتاً لذلك. هل اقتنعت؟

لا، لم تقتنع. وبدا ذلك على وجهها، فقال متنهداً:

ـ لا بأس، أشعر أن فيليب يريد القيام بشيء ما، وهذا واضح. ولكن ما مدى النجاح الذي سيحرزه، فهذا ما لست واثقاً منه. ولهذا أنا أحرس نقاط ضعفي.

ـ وأنا نقطة ضعف؟

ابتسم فجأة بكسل متمتماً بإغراء: «آه، نقطة ضعيفة للغاية».

وأخذ يقترب منها، فرفعت يدها توقفه عند حده وقالت: «أريد منك أن تحترمني يا «كونت»».

توقف، فغالبت هي خيبة أملها لئلا تظهر، لكن لويس رآها على كل حال فقال بابتسامة عريضة: «إذا لمستك الآن فستصبحين دخاناً».

ـ نعم، إذا لمستني.

ـ لهذا لن ألمسك.

ـ «آه». قالت ذلك من دون أن تحاول إخفاء خيبة أملها هذه المرة.

ـ شكراً لأنك ذكرتني بأن عليّ أن أحترم الكونتيسة.

في الساعات الأربع والعشرين الماضية تغيّرت وعلى ما يبدو أنه هو أيضاً تغير. إذ تبدد الكثير من التوتر الذي تملكه عند حضوره إلى الوادي. يبدو الآن رجلاً رائعاً ساحراً، كسولاً مسترخياً عاطفياً خصوصاً عندما ينفردان.

هذا الاستنتاج جعلها ترتمي بين ذراعيه، قائلة: «خذ قبلة واحدة عفيفة، إذن».

فطوقها بذراعيه قائلاً، بسخرية: «عفيفة؟».

أجابت: «نعم».

ولكن لم يكن ثمة عفّة في طريقة وقوفهما وتأوه قائلاً: «عليّ أن أذهب».

ـ تذهب؟ إلى أين؟

ـ إلى العمل.

ونظر إلى ساعته، وعاد فجأة إلى شخصية رجل الأعمال.

- عليّ إنجاز أشياء قبل الاحتفال وعليّ الخروج من الوادي قبل أن يشتد الظلام..

- لكننا وصلنا لتوّنا!

- لا تلوميني. أنت من أعاق منهاجي العملي لمدة أربع وعشرين ساعة. وأعترف بأنها أربع وعشرون ساعة لذيذة جداً، ولهذا عليّ أن أعوّض ما فاتني. لن تريني مرة أخرى إلا في الكنيسة.

وعندما اتجه نحو الباب، صرخت به بلهفة: «لويس! ماذا عن نقطة ضعفك؟».

- فيتو سيبقى هنا، اذهبي إليه عند الحاجة.

- ألأنه مدين لك بحياته ويفعل أي شيء لأجلك؟

منعه هذا عن السير، والتفت إليها بدهشة وذهول: «هل تمكنت من جعله يخبرك بهذا؟ حسناً، إنها البداية».

- وماذا فعلت؟ هل سحبته من بين اشتباك الأمواس التي تركت كل تلك الآثار على وجهه؟

- لا.

فجأة تلاشت ابتسامته: «سحبته من السجن ومنحته عملاً يعيش منه، ولم يكن ذلك سهلاً، يا كارولين».

الحق معه، ذلك ليس سهلاً، فتمتمت نادمة: «آسفة».

فأومأ يقول: «إلى اللقاء يوم الأربعاء».

سيذهب.. لكنها لم تشأ ذلك بعد هذا التلاسن.

- أنا أحبه، في الواقع، لوفائه لك. لم تعلم حتى أن فيليب يقيم في فندقك، أليس كذلك؟

سألته هذا مغيرة الموضوع تماماً، فقال لويس: «لقد دخل الفندق باسم مختلف».



قالت مقطبة: «وأخذ يتعقبنا، أنا وأبي. عرف من أكون، ومن هو أبي، وهذا يريك أن هناك جاسوساً في وسطكم، يا لويس».

فأومأ يقول: «أنا متنبه لهذا، وأقوم بما ينبغي».

- وهل أبي نقطة ضعف أخرى؟

التفت إليها متفحصاً، ثم أجاب بهدوء: «نعم».

تنهدت وعاد القلق يبدو عليها.

- وهل تحرسه هو أيضاً؟

- من دون شك.

طمأنها بلهجة غريبة تماثل التعبير الغريب الذي بدا على وجهه.

- سيكون هنا، آمناً معافى، لكي يسلمني إياك وقت الاحتفال، لا تخافي من هذه الناحية، يا حبيبتي.

ثم رحل، تاركاً كارولين واقفة تحدق في أثره، متسائلة عما يجعلها تشعر بهذه البرودة في كيانها على الرغم من كلماته المطمئنة؟

نبهها من أفكارها طرق على الباب، فتحته لتجد الخادمة أبريل على العتبة.

- أرسلني «الدون لويس» لأساعدك في تنظيم أمتعتك.

سرّها هذا الإلهاء، يبدو أن لا أحد في هذا الوادي قد يبقى سعيداً مدة طويلة. وأخذت، مع الخادمة، تفتح علبة بعد علبة عليها أسماء محلات لم تكن كارولين تحلم بالشراء من مثلها، وعندما وصلتا إلى الثوب الأبيض، فتحت الفتاتان العلبة معاً ليخطف منهما الأنفاس وهما تريانه معلقاً في الخزانة.

تنهدت الخادمة بشوق: «ما أروعه!».

وافقتها كارولين باسمة وهي تتذكر كيف أرسلت لويس إلى خارج المحل ليتناول فنجان قهوة حتى يتسنى لها اختيار الثوب بنفسها. وخرج ساخراً متكاسلاً لكنها اشتبهت في أنه أحب فكرة أن تختار ثوباً الهدف منه أن

يشعر هو بالسرور.

وكانت تتلمس التخريم الناعم بخفة عندما خطرت فكرة ببال كارولين للمرة الأولى. لكنها خطرت ببالها الآن فجأة بعدما فات الوقت، تقريباً، للقيام بشيء بهذا الشأن، وهو أنه لن يكون لديها صديقات يساعدنها في ارتداء هذا الثوب، أو حتى واحدة تقف بجانبها شاهدة بصفتها وصيفة العروس.

لكن يبدو أن لويس ڤازكيز، الذي لا يفوته شيء من التفاصيل، قد فاته هذا الأمر البسيط.

- أبريل.. هل لك أن تقومي بخدمة لي.. خدمة خاصة جداً؟

- طبعاً سيدتي.

أجابت الخادمة بذلك على الفور.

- إذا استطعت أنا شراء ثوب جميل لك في الوقت المناسب.. فهل تكونين وصيفتي؟

مضت لحظة ظنت فيها أنها أفزعت الفتاة المسكينة، لأنها بقيت جامدة صامتة ثم قالت بصوت خافت: «آه، سيدتي.. هل تعنين هذا حقاً؟».

- نعم، أعني هذا. لا بد أنك لاحظت أنني هنا وحدي، فأهلي وصديقاتي كلهم في انكلترا، ومع أن أبي سيحضر، إلا أنه سيكون بمفرده. ألا تظنين أن من الأفضل أن تقف معي فتاة من الوادي؟

أجابت الفتاة برزانة: «هذا يشرفني، ولكن عليّ أن أستأذن «الدونا كونسويلا» قبل أن أوافق تماماً».

- طبعاً.

أجابتها كارولين على الفور، من دون أن تزعج نفسها بالقول إن عليها، في الواقع، أن تأخذ الإذن منها.

بدت الراحة على أبريل وكارولين تقول: «سأذهب لأسألها الآن، بينما تنهين أنت هذا هنا».



يجب ضرب الحديد وهو ساخن، حدثت نفسها بذلك متشجعة وهي تبحث عن خالة لويس. لكنها بدأت تتمنى، لو أنها لم تفعل.

وجدت «الدونا كونسويلا» في غرفة الإستقبال الرئيسية واقفة تحدق من النافذة. كان في وضعها هذا من الحزن والوحدة والوحشة ما مس قلب كارولين على رغم معرفتها بدور هذه المرأة في تدمير حياة لويس: «كونسويلا...».

لم تشعر المرأة بكارولين عندما دخلت، فقد كانت تائهة في تأملاتها الكئيبة، لكنها التفتت إلى كارولين وملامحها هادئة ناعمة كالعادة، وهذا ما جعل كارولين تفكر بأسى، إنها تشبه لويس، ثم قالت بحذر: «هل تمانعين إذا سألتك النصيحة بالنسبة لأمر ما».

لم تعلم ما الذي جعلها تغير سؤالها من طلب مهذب، إلى طلب رقيق، إلا إذا كان السبب هو شبه كونسويلا بلويس عندما يخفي آلامه.

وأجابت المرأة: «طبعاً، إذا كنت تظنين نصيحتي مفيدة».

أخذت كارولين نفساً عميقاً، ثم شرحت لها ما تريد ولماذا تريده. واستمعت كونسويلا إليها بوجه جامد، وكانت مفاجأة عندما ابتسمت المرأة بكآبة وقالت: «أنت طيبة. وما يخفف عني أن أعلم أنني سأترك الوادي في رعاية فتاة حساسة مثلك».

فقالت كارولين على الفور مدافعة، لأنها لم تكن تنتظر الرضا من هذه المرأة، بالذات.. ولهذا كانت تبحث عن انتقاد خفي منها: «ولويس يهتم أيضاً».

فاستحالت ابتسامة المرأة إلى الجفاء: «أعلم هذا. نعم، ستكون بادرة جيدة جداً منك إذا اتخذت أبريل وصيفة شرف لك. سيحبك الناس في الوادي كثيراً لهذا العمل، باركي الصغيرة باسمي واخبريها أنها في عطلة الآن من كل عملها المنزلي لتتفرغ لك ولدورها البهيج».

تمنت كارولين لو تسألها عما ستفعله هي؟ هل ستستمر في الذبول في

ظلال هذا المنزل الذي كان بيتها سنوات طويلة؟ واندفعت تسألها بتهور: «ماذا ستفعلين عندما ترحلين من هنا؟».

عادت الابتسامة إلى الجفاء: «إذن، لويس يريد أن ينفيني من هنا؟ كنت أتساءل».

تملك كارولين ذعر بالغ لتطرقها دون قصد موضوعاً ما كان ينبغي لها أن تأتي على ذكره. فأجابت باستغراب: «لا أدري، لويس لا يتحدث معي عن أسرته».

ـ لا، لا أظنه يفعل ذلك.

تمتمت الكونتيسة بذلك، ثم استدارت إلى النافذة، وكان هذا يعني النبذ لأي إنسان، فكان أن خرجت كارولين، شاعرة بالمذلة، من دون أن تجرؤ على التلفظ بكلمة أخرى.

ذهبت، بعد ذلك، تبحث عن ڤيتو فوجدته في الحديقة ينظر إلى تشييد مشروع باحة خشبية للرقص تحت مظلة كبيرة مخططة.

ـ ڤيتو.

ولمست ذراعه تسترعي انتباهه وعلى الفور عادت فسحبت أصابعها وكأنها لمست صخراً صلداً.

ـ أتظن أن لويس سيمانع إن استعملت طوافته؟

ارتد إليها بخفة كبيرة بالنسبة إلى رجل بحجمه ما أجفلها، وسألها بحدة: «لماذا؟ لماذا تريدين الطائرة؟ ماذا حدث؟».

ـ لا شيء.

كانت تطمئنه، ولكن عينيه أخذتا تدوران في كل الاتجاهات، وبدا وكأن قامته طالت عدة إنشات، فقالت: «أنا بحاجة إلى الطائرة لمهمة قصيرة، مهمة خاصة».

ثم تابعت الشرح.

***



كانت على وشك الانتهاء من طعام الفطور صبيحة الاحتفال، عندما وصل أبوها في طوافة لويس. وفي اللحظة التي رأته فيها ينزل، نهضت وأخذت تركض إلى الخارج في الشمس لتلتقي به في منتصف الفناء.

ـ آه، يا أبي.

شهقت وهي تلقي بنفسها في أحضانه، كيف تتركني بذلك الشكل؟

ـ لا تبكي يا كارولين، أنا بخير.

قال ذلك بضيق عندما أخذت تنظر إليه لتطمئن إلى صحته، فقالت وهي ترى ما طرأ عليه من التغير وإن لم يلاحظه هو: «لا يبدو عليك ذلك».

تأوهت بحزن وهي تراه يبدو أكبر سناً وأكثر هزالاً، فقال وكأنه يريد تغيير الموضوع.

ـ يا له من مكان.. لم أر مثله قط! الطيران فوق قمة ذلك الجبل خطف أنفاسي: هل كنت تعلمين منذ سبعة أعوام أن لويس الوريث لكل هذا؟

ـ لا.

حاولت أن تنظر في عينيه، لكنه لم يسمح لها بذلك. كما كانت يداه تبعدانها عنه، وكانت تتابع قائلاً: «ولو عرفت ذلك لما غيّر هذا شعوري نحوه، هل لك أن تنظر إليّ، أرجوك؟».

نظر إليها فرأت في عينيه شعور الذنب والحزي والتعاسة، فاغرورقت عيناها بالدموع، وقالت بصوت مختنق: «أحبك كثيراً يا أبي. وكنت قلقة عليك كثيراً».

لم يعد يحتمل. إذ تأوه ثم طوقها بين ذراعيه وهو يسألها بخشونة: «وهو؟ هل تحبينه؟».

أجابت: «أحبه كما أحب نفسي، والحقيقة أنني أحببته دوماً. وكنت تعلم هذا».

ـ نعم، دوماً.. لكنني ما زلت آسفاً لأنني أوقعتك في هذه الورطة المخيفة.

وحين نظر إليها غير مصدق، قالت: «هذه ليست بورطة يا أبي، فلويس هو من أريد، وطالما أردته».

قال عابساً: «ولكن ليس أن نقدمك إليه على طبق كأضحية لعينة».

ـ لست أضحية. أم لعلك تعني ضمناً أن لويس لا يبادلني أي شعور؟ إذا كنت تظن ذلك فعد من حيث أتيت.

قالت ذلك بغضب شديد، فعاد يتأوه: «قولي لا يتضمن شيئاً. يا إلهي! لقد جاهد الرجل مرتين جهاداً كبير في سبيل الوصول إليك...».

شعرت كارولين بالبرودة تسري في جسمها:

ـ مرتين؟! ما تعني بقولك، مرتين؟

وحوّل عينيه عنها: «لا شيء.. حسناً، هل لك أن تنظري هناك؟».

ثم هتف بدهشة محولاً انتباهها إلى بقعة كان ينظر إليها قرب مدخل القصر.

ـ ما الذي يفعله هنا؟ لم يخبرني قطُّ أنّه يعرف لويس.

لم يخبرني قطُّ..

كررت كارولين لنفسها هذه الكلمات وهي تلتفت إلى فيليب. الآن بدأت أشياء كثيرة تتضح لها، كان أبوها هو الجاسوس على لويس، وإنما دون علم منه.

أواه، يا أبي! أخذت تفكر متأوهة. وعندما تحوّل ليذهب إلى فيليب منعته: «حذار منه، يا بابا».

ومجرد استعمالها الهادىء لاسمه كما اعتادت في طفولتها، كان كافياً لينبه السير إدوارد: «راقب كل كلمة تقولها له، واحترس جيداً».

قطب جبينه: «لماذا؟ ومن يكون؟».

ـ إنه أخ لويس غير الشقيق.. الرجل الذي يعتقد أنه كان يجب أن يرث هو كل هذا...

تبلجت له الحقيقة بالسرعة التي تبلجت بها لابنته. وأطلق شتيمة



خافتة.

عند ذلك ارتفعت الطوافة فجعل صوت المحرك الذي ملأ الجوّ، كلماته غير مسموعة. ويبدو أن أباها اختار الوقت الذي اتخذته الطوافة لكي تكتسح الوادي، لكي يصل إلى قرار. فقال بهدوء: «فلنذهب إلى مكان يمكننا التحدث فيه على انفراد، لدي ما أريد أن أقوله لك».

***

أرادت كارولين أن ترى لويس. كانت بحاجة ماسة إلى ذلك، لكن إجراءات الاحتفال كانت تسير بسرعة فائقة. وكانت تفترض أن لويس بانتظارها الآن في الكنيسة الصغيرة في وسط القرية حيث اجتمعت أسرة فازكيز بأكملها لمشاهدة هذا الحدث.

ـ تبدين رائعة الجمال سنيورا.

حوّل صوت ابريل الرقيق عيني كارولين القلقتين إلى المرآة التي كانت واقفة أمامها.

كان الثوب العاجي اللون الذي يصل إلى كاحليها، مصنوعاً من «الكريب». كان يضيق على أضلاعها وينفتح على صدرها وقليل من كتفيها تحت كميها القصيرين وكان نقابها الطويل مجموعاً على رأسها بتاج صغير من الماس. كل شيء فيها كان يوحي بالبساطة.. ملابسها وأسلوبها في التصرف.

ولويس.. حدثت عينيها البنفسجيتين من خلال المرآة. أنت على وشك أن تتزوجي دينياً بلويس، وهو زواج لا تنفصم عراه.

ولكن لماذا وافق هو على الزواج الكنسي وهو يعلم مدى سوء ظنها به منذ سبع سنوات، فهذا الزواج لا يحلّ بالطلاق.

لم يقل لويس قط إنه «يريد» الزواج بها، بل قال إنه «بحاجة» إلى الزواج بامرأة.. هذا ما راحت تذكّر عينيها البنفسجيتين القلقتين هاتين به، «وكل ما كنت تفعلينه في الأيام الأخيرة هو الادعاء بأنه تزوجك عن حب، ولكنك

تعلمين أنه قد يبتعد عنك ما إن يحقق الشروط القانونية لوصية أبيه».

فهل يكتمل انتقامه! بأن يهجرك كما هجرته أنت منذ سبعة أعوام.

أوشكت على التقيؤ.. أرادت أن تهرع إلى الحمام لكي تفرغ ما في جوفها. كانت تعرف لويس، وتعرف ما يمكن أن يقوم به، وتذكرت فجأة صورة العقرب في مكتبه، تصورته أمامها الآن، يزحف على المرآة وكأنه مستعد للسعها.

ـ سنيورا.

وبدا الاهتمام في صوت أبريل، أتراها استطاعت أن ترى أن كارولين على وشك أن تفقد كل ذرة من شجاعتها بسبب الشعور بالذنب.

ـ سنيورا.

وأمسكت يد رفيقة بساعدها. الأصابع صغيرة سمراء على بشرتها هي الناصعة البياض، وتمتمت الخادمة الصغيرة بقلق: «أنت ترتجفين، هل أنت خائفة يا «سنيوريتا»؟ أرجوك، لا تخافي، «الكونت» رجل طيب، كل شخص في الوادي يقول هذا. لقد ذكّرهم بجده «الدون انجلس»، الذي كان رجلاً طيباً هو أيضاً.. رجلاً قوياً».

فجاهدت كارولين لكي تهمس: «أنا بخير.. فقط..».

وعادت ترتجف وكأن حشرة سامة تزحف على جلدها.

حاولت أن تستجمع شتات نفسها، نظرت إلى وصيفتها الصغيرة، التي كانت تقف إلى جانبها في ثوب عذارى أبيض بسيط. كانت تبدو فاتنة بشعرها الأسود وبشرتها السمراء الرائعة وعينيها السوداوين الشبيهتين بعيني غزال. وعادت تطمئنها: «أنا بخير».

واستطاعت أن تبتسم.

ناولت أبريل العروس باقة الزهور البيضاء، التي اقتطفتها منذ ساعة فقط من الحديقة ونسقتها بنفسها.

كان أبوها يذرع الردهة الفسيحة بقلق. وعندما رآها، وقف جامداً



وأخذ ينظر إليها تنزل السلم نحوه. ثم تمتم يقول: «ياالله، يا كارولين».

وكان هذا كل شيء لأن البقية كانت مكتوبة في عينيه.

دهشت عندما وجدت أنه ليس ڤيتو من سيقود السيارة إلى الكنيسة. أجفلت، فنادراً ما كان ڤيتو يفارقها، ولكن هذه المرة كان سائق سيارة لويس السوداء رجلاً غريباً، ولم تكتشف السبب الذي جعل ڤيتو يتخلى عنها إلا بعد أن دخلت الكنيسة مع والدها.

ذلك أن ڤيتو كان يقف إلى جانب لويس فاغرورقت عيناها بالدموع عندما رأته واقفاً ببذلته الرسمية السوداء منخفض الرأس ينتظر وقد بدا عليه التوتر، فكادت تشهق من فرط السعادة.. فهذا التوتر يعني أن هذه اللحظة مهمة له كما هي مهمة لها.

سرت حركة بين الجالسين وهم يتحولون للنظر إليها، وهذه الحركة جعلته يرفع رأسه. التفت ينظر إليها.. وكان هذا آخر شيء تذكرته من معظم الطقس الكنسي الطويل. لأنه ما من رجل ينظر إلى امرأة بهذا الشكل إلا إذا كان يريدها حقاً طوال العمر.. حتى إن يده وهو يتسلمها من أبيها كانت ترتجف قليلاً.

تبادلا عهود الزواج في جو ساكن حبس الحاضرون فيه أنفاسهم. ولكن عندما ألبسها لويس خاتماً في إصبعها، طرفت بعينيها وهي ترى خاتماً بسيطاً، ولكن رائعاً، من الماس بجانب المحبس الذهبي الدقيق الصنع، الذي وضعه في يدها يوم تزوجا مدنياً.

رفعت بصرها إلى عينيه السوداوين اللتين تدفقت منهما المشاعر. فلما رأى الدموع في عينيها انحنى هامساً بخشونة: «إياك...».

وأي اعتراض منها سيكون فيه دمار كل شيء! ثم تكلم الكاهن: «إذا وضعت الخاتم في إصبع «الدون لويس»، يمكننا أن نتابع...».

في الخارج، في أشعة الشمس، احتشد القرويون ليصفقوا ويهللوا لهما وهما يخرجان من الكنيسة وتعلقت هي بذراعه وكأن ما يجمعهما هو أكثر من

الزواج. كانت باسمة متوردة الوجه خجلاً، ورأت ڤيتو واقفاً كالجبل بجانب أبريل الضئيلة الجسم، وكان أباها رزيناً متوتراً. ولم تنسَ حتى الخالة «كونسويلا» التي وقفت هادئة منتصبة الجسم. . تتابع كل هذا أشبه بشهيدة تنظر إلى مصيرها المحتوم.

لكن لم يظهر لفيليب أثر، ولا هو جاء ليجلس معهم إلى المائدة التي مدّت بغطائها الأبيض وبأنواع من الأطباق الصينية الطراز والفضيات التي بدت وكأنها من المتحف.

لم تستطع أن تسحب يدها من يد لويس منذ قبض عليها بقوة كما هو مفروض في البداية. حتى الآن، وبعد أن جلسا إلى المائدة، أخذ كل منهما يأكل بيد واحدة، بينما أصابعهما المشتبكة مسندة إلى المائدة بينهما.

قالت له بعد أن وقع نظرها على الخاتم الماسي: «شكراً لهذا، إنه جميل».

ـ سرّني أنه أعجبك.

ـ حسناً، شكراً. لقد أكمل هذا الخاتم كل شيء.

ـ لا.

رفعت بصرها فرأت في عينيه نظرة أدارت رأسها: «أنت التي تكملين كل شيء» ثم عانقها برقة.

أخذ المجتمعون يصفقون، قاطعين بذلك عناقاً في منتهى الكمال.

في الوقت الذي تركا فيه المائدة، كانت الشمس قد غربت والحديقة تألقت بالأضواء. أخذها لويس بين ذراعيه ودار بها في باحة الرقص، يرقصان على موسيقى القالس. إنها المرة الأولى التي يرقصان فيها منذ سبع سنوات، وهذا جعل شرارة كهربائية تسري بينهما.

إحتك فمه بخدّها، متمتماً بصوت أجش: «لهف قلبي شوقاً إليك وأنت تتقدمين نحوي في الكنيسة».

وعندما مالت برأسها إلى الخلف لتنظر إليه، كانت النجوم في عينيها،



لكن لونها شحب قليلاً عندما تذكرت ما كانت تشعر به سابقاً. . والأهم من ذلك. . لماذا كانت تشعر به.

وقالت بصوت أبح: «كنت أتحدث إلى أبي، وقد أخبرني بما حدث حقاً منذ سبعة أعوام. أنا. . .».

وإذا بلويس يتحول فجأة إلى رجلٍ مختلف تماماً، وعندما رأت ذلك، سكتت. وأخذت ترقب نظراته التي تصلّبت وتحوّلت عنها إلى الحديقة.

ـ لويس. .

فقاطعها: «لا، لقد غضبت منه لأنه أخلف وعده لي وأخبرك بكل ذلك. وغضبت منك لأنك، من بين كل الليالي، إخترت هذه الليلة لتتحدثي عن ذلك».

ولكن كان لا بد لها من أن تكمل: «لكنك لم تأخذ منه قرشاً واحداً، فأنت كنت تلاعبه لتمنعه من المقامرة مع الآخرين، وما فعلت ذلك إلا لأنك تعلم مقدار قلقي عليه. . فكان أن أخذت على عاتقك أن تحميه من الخطر! أنا مدينة لك بالكثير لهذا، يا لويس!».

كان وجهه شاحباً، وشفتاه متوترتين وأسنانه تصرّ خلفهما وقال بخشونة: «لست مدينة لي بشيء».

ـ بل مدينة لك بالإعتذار.

قالت ذلك وأخذت ترتجف بين ذراعيه وقد تفجر كل شعور بالذنب في داخلها.

ـ كنت أحبك، ولهذا كان ينبغي لي أن أعلم أنك لا يمكن أن تقوم بعمل غبي كأن تُفلس أبي! لكنني صدقته بدلاً من أن أصدقك. . وعندما علمت المدى الذي وصل إليه كذبه! لم أعد ألومك.

ـ دعي عنك ذلك يا كارولين قبل أن أغضب.

لكنه كان غاضباً فعلاً.

ـ لقد تركته يربح الألوف منك. . ألوف الجنيهات التي أخبرني حينذاك

بأنك كسبتها منه! ولا عجب في أنه كان متلهفاً إلى اللعب معك في الأسبوع الماضي. كان يعتقد حقاً أنه سيعود إلى الربح منك بسهولة.

قالت ذلك بمرارة بالغة، فأجفل وكأنها صفعته بقوة، فتأوهت: «لم أكن أريدك أن تغضب».

ورفعت يدها تمرّ بها على وجنته معتذرة: «لويس..».

قال: «لا، لن نتحدث عن هذا، لا الآن ولا في أي وقت آخر، هل تفهمين؟».

وأمسك يدها وأبعدها عن وجهه، وتراجع إلى الخلف، ثم ارتدّ مبتعداً.

من حسن الحظ أن الموسيقى توقفت في تلك اللحظة، إنها موهبة لويس في التوقيت..

حل زوج عمته مكانه. وبعد ذلك لم تره كارولين وهي تنتقل في باحة الرقص، بين أذرع أقربائه، من واحد لآخر، وعندما استطاعت أخيراً أن تهرب من الرقص لكي تبحث عنه، كان المكان خلف الأضواء الخفية مظلماً، والقصر يسبح في بحيرة من الأضواء.

لم تجده بين الناس في الحديقة، ولهذا ذهبت لتبحث عنه في الداخل، وكانت تجتاز الردهة عندما تقدم نادل منها.

ـ المعذرة، يا كونتيسة. لكن الكونت أرسلني بخبر لك.

آه، وشعرت بالراحة وسألته بلهفة: «أين هو؟».

ـ طلب أن تلاقيه في السيارة، بعد الجدار الفاصل مباشرة، من فضلك.

في السيارة؟ ماذا ستفعل الآن؟ أخذت تتساءل وهي تخرج من المنزل وتتوجه إلى طريق السيارات حيث كل السيارات متوقفة خارج الجدار المحيط بالقصر، هل سيخطفها مرة أخرى إلى مكان آخر؟

حسناً، ربما لدى لويس مفاجأة. أخذت تفكر في ذلك بابتسامة بددت القلق من نفسها.



كانت السيارة مجرد سيارة سوداء ضخمة بين كثيرات، لكنها سرعان ما وجدتها لأن محركها كان دائراً، ولمحت خيال لويس خلف عجلة القيادة قبل أن تفتح باب المقعد بجانبه وتصعد إلى الداخل.

ـ هذا سريّ لدرجة مثيرة، لويس.

قالت هذا مازحة وهي تلملم أطراف ثوبها ونقابها إلى الداخل قبل أن تغلق الباب.

ـ لكن هذا لم يعد ضرورياً حقاً.

وانغلق الباب، وانطلقت بهما السيارة، وقالت وهي تلتفت نحوه تلوح له بيدها: «أتعرف..».

هدأت الكلمات أولاً ثم قلبها الذي ما لبث أن عاد يخفق بعنف شعرت معه بالغثيان. وعندما اندفعت نحو مقبض الباب، انقفل هذا آلياً وفي هذا الوقت التفت فيليب إليها قائلاً بابتسامة عريضة كسول ولهجة مطاطة: «هذا حق السيد.. إنها تقاليد..».

***

# ١١ ـ رحيل الماضي

أول ما فكرت فيه كارولين هو أن تنظر حولها لترى إن كان رآهما أحد وهما ينطلقان بسرعة. ولكن لم يكن هناك غيرهما في هذه الناحية من الجدار.

ـ هذا غباء، يا فيليب. لا أدري ما الذي ستستفيده من هذا.

قالت هذا محاولة السيطرة على خوفها، فأجاب: «الرضاء».

ثم انعطف إلى اليمين. وبدلاً من سلوك الطريق الذي يتخلل القرية، أخذ يسير بسرعة بين صفوف الأشجار المثمرة الضيقة، كان عملاً يقف له شعر الرأس.. تمسكت كارولين بمقبض الباب، وكان جسدها يجفل كلما احتكت غصون شجرة بالسيارة.

منعطف آخر، ثم أخذا يسيران بمحاذاة جانب الوادي على طريق لم تعرفه من قبل. وخلال ثوانٍ دارا حول القرية واتجها إلى الجبل، وبقلب يخفق بعنف، ويدين ترتجفان، تناولت حزام المقعد ووضعته حولها.

قالت بصوت خافت: «أنت مجنون».

هز فيليب كتفيه فقط وهو يستدير بالسيارة حول إحدى المنحنيات الحادة في الطريق الضيق، وبعد لحظات كان الوادي بأجمعه مكشوفاً أمامهما. رأت القصر يسبح في الضوء، ورأت الناس حتى وهم يرقصون أو يقفون جماعات في أنحاء المكان، يتحدثون. أخذ قلبها يخفق وهي تحاول أن ترى شكل لويس المميّز.. ولكن فيليب استدار بالسيارة بحدة في اتجاه آخر.

بعد منعطف آخر أصبح القصر على بعد ساحق، وأذهلها أن ترى العلو



الشاهق الذي بلغاه. منحنيان آخران حادان ويصلان إلى المكان الذي يصبح فيه الطريق ممراً خطراً بين الجبال.

إنها لا تريد الذهاب إلى هناك مع فيليب. لا تريد أن يقود هذا الرجل المجنون السيارة بمثل هذه السرعة الجنونية على ذلك الجزء الفظيع من الطريق الذي كانت حافته عبارة عن انحدار رأسي، نحو واد ضيق، يبلغ عمقه مئات الأمتار.

صرخت به وهي ترتجف: «أوقف السيارة يا فيليب، المزحة هي مزحة، وإذا كان هذا يعجبك، فأنا.. خائفة. لكنني أريد منك أن تقف لأنزل».

قال ساخراً: «وتعودين سيراً على الأقدام؟ في هذا الثوب وهذا الحذاء العالي الكعب؟».

ـ نعم، إذا اضطررت لذلك.

لم تكن تهتم ما دام سيسمح لها بالذهاب من هنا.

دار فجأة حول منحنى حاد آخر. فتصاعد صرير العجلات ثم دارت بسرعة تتشبث كارولين بمقعدها رعباً، وكادت تصرخ عندما لم تعد ترى أمامها سوى شيء أشبه بجدار حالك السواد.

قفز قلبها رعباً، وظلت على هذه الحال حتى أدركت أنهما لن يسقطا عن الجبل، وإنما كانا، في الواقع متوجهين نحوه مباشرة.

ـ لا بد أنهم افتقدوني الآن.

وجربت بقنوط طريقة أخرى: «سيفتقد لويس سيارته، ولا بد أنه قادم خلفنا، أتظنه لم يلاحظ أنوار السيارة ونحن نصعد؟ أنزلني هنا، فيليب وستكون لديك فرصة للهرب! امضِ في طريقك حتى يدركنا ويقتلك. أقسم بذلك!».

قال ضاحكاً: «بدأت تخافين، أليس كذلك؟».

ثم استدار بالسيارة حول منعطف آخر في الطريق.

كان يقود السيارة بعدم اكتراث جعلها تقع على كتفه. وفي الوقت الذي

أخذت فيه تستقيم في مقعدها، كانت تنظر إلى النجوم وهي تتألق بين جدارين أسودين مشرفين، وأدركت بذعر أنهما وصلا الآن إلى ممر جبلي ضيق. وصرخت بصوت حاد: «فيليب! توقف عن هذا، توقف!».

لكنه لم يكن ليتوقف عن شيء، لا عن السيارة، ولا عن قيادته العنيفة المتهورة، ولا عن غبائه الذي جعله يتصرف بهذا الشكل، وتمتم معنّفاً: «قد يكون انتقاماً ممتعاً أن أرى وجه لويس عندما يراك هناك في قعر الوادي بين حطام سيارته».

وضحك، فشحب وجه كارولين.

- لكنني لست جائعاً إلى هذا الحد، خطتي الأساسية تناسب فكرتي عن الإنتقام بشكل أفضل.

- لا أدري.. ما الذي تتحدث عنه.

قالت ذلك متلعثمة، من بين أسنان متوترة بدأت الآن تصطك. وقال يناقشها: «بل تدرين، أنت من سلالة تعرف كل شيء عن تقاليد العائلات القديمة. فإذا فكرت بي فقط بصفتي المالك الشرعي لكل ما خلّفناه وراءنا من أملاك، فأن تجد المرأة نفسها مع سيد القصر لأمر يمنحها بهجة أكبر مما لو كانت مع الفلاح الذي تزوجته».

- لويس ليس الفلاح هنا، وإذا ظننت أنني سأسمح لرجل آخر غير لويس بأن يلمسني، فأنت تخطىء أيّ خطأ.

قال ببطء وهو ينظر إليها متفحصاً: «إذن فأنت تتظاهرين بحب ابن الحرام ذاك. لماذا؟ هل تفضلين أن تدعيه يلمسك بينما بإمكانك أن تغمضي عينيك وتري الكونت بدلاً من مجرم نيويورك؟».

- لا حاجة بي إلى التظاهر، فأنا أحب لويس. ثم، هل لك أن تركز عينيك على الطريق؟

واختنق صوتها عندما دار حول منعطف حاد من دون اهتمام يُذكر.

- كفى قلقاً، فأنا أقود سيارتي في هذا الطريق منذ كنت مراهقاً، وأنا



أعرف كل التواء وأخدود فيه من هنا إلى قرطبة.

لم يكن أمامها إلا أن تدعو الله أن يكون هذا صحيحاً! كانت إحدى يديها متشبثة بمقبض الباب، والأخرى بحزام مقعدها.

نظر فيليب إلى جلستها المتوترة.. ثم دار بالسيارة بعنف وتهور شديدين حول منعطف آخر.

أغمضت كارولين عينيها غير قادرة على النظر أكثر من ذلك.

وعاد بهدوء إلى الموضوع الآخر: «أنت تزوجته لأنه عرض عليك أن يدفع ديون أبيك، إذا تزوجته، ولا علاقة لهذا بالحب».

قالت وهي تصرّ على أسنانها: «لقد تزوجت لويس لأنني لا أحتمل العيش من دونه».

قال بمرارة لاذعة: «كاذبة، لقد اشتراك. اشتراك بنقوده، اشتراك باسمه، اشتراك لأنه الابن غير الشرعي لدون كارلوس فازكيز. وأنت مستعدة للنوم في سريره، وإغماض عينيك الإنكليزيتين الحلوتين عن نشأته الوضيعة، وأمه الفاسقة وطريقته المشبوهة في كسب الملايين، لأن من الأفضل أن تغمضي عينيك وتتظاهري بأنه الدون لويس فازكيز الكونت بدلاً من المحتال الذي سرق من أسرته!».

- لويس لم يسرق منك.

- لقد سرق لقبي. سرق أموالي وبيتي! سرق ما منحني الله إياه من حقوق مولدي.

وضرب عجلة القيادة بيده غاضباً فذعرت وأخذت تدعو الله أن يسلمهما عند المنعطف التالي.

- سأسرق منه شيئاً قبل أن أرحل عن هذا المكان إلى الأبد، سأسرق منه ليلة عرسه، وانتقامي منه هو معرفتي بأنه سيعلم كلما لمسك أنني أنا أخذت عروسه الجميلة أولاً.

قالت ضاحكة: «أنسيت أنني ولويس تزوجنا مدنياً منذ أيام.. لا

يمكنك أن تسرق ما سبق أن أخذه».

أصر قائلاً بعبوس: «ليلة عرسه».

يا للجنون! ويا له من مجنون! قالت تجادله بصوت مرتفع: «أنت الذي سرقت منه، يا فيليب، وليس العكس! لست أخاه غير الشقيق! إن أمك مخادعة كاذبة. لقد احتالت حتى أخرجت أختها من حياة «الدون كارلوس» لكي تأخذ مكانها! اختلقت وضعاً واستعملته بقسوة لأجل أهدافها. حرّفت كل الحقائق حتى تصوّر للدون أن والدة لويس كانت تنام مع عشيق أمك المتزوج! وبعد ذلك احتلت أمك، ببراعة، المكان الذي شغر برحيل أختها.. وذلك بعد أن سعت إلى إرسال أختها سيرين إلى أميركا وهي حامل بلويس».

صرخ بها: «هذا كذب!».

وانحرفت السيارة بعدم ثبات فهبط قلب كارولين، وتشبثت بما حولها خوفاً.

حدثت نفسها بفزع بألا تجادله. بأن تتجاهله حتى ينزل بها من هذا الجبل سالمة.

لكنها لم تستطع أن تكبح الكلمات التي تفجرت الآن بعد أن أخفتها منذ قرأت الحقيقة الهائلة عن أسرة فازكيز.

ـ بعد أشهر تزوجت أمك من الدون كارلوس وهي حامل من عشيقها بطفلها الذي هو أنت، فيليب.

قالت ذلك بإصرار مستشهدة، حرفياً تقريباً، بكلمات والد لويس التعيس.

ـ أما والدك الحقيقي فهو أعز صديق للدون كارلوس، صديقه المتزوج! وفي اللحظة التي فتحت عينيك فيها في الصباح الذي ولدت فيه، رأى أبوك أعز أصدقائه يبادله النظرات من خلال عينيك.. عند ذلك علم.. علم أن أمك خدعته واستغلته لكي تضمن مستقبلها على حساب شقيقتها! ومنذ



ذلك اليوم نفسه أصبح لويس وريث والده ولم يقل لك أحد قطُّ شيئاً غير هذا.

ـ من أين عرفت كل هذا بحق الجحيم؟

صرخ بذلك بصوت مزعج وقد بدا عليه للمرة الأولى، وكأنه يختنق بكذبه.

أجابت: «من الدون كارلوس نفسه، فقد ترك يوميات مفصلة عن حياته، بما في ذلك السنوات التي أمضاها في البحث عن سيرين وابنه الحقيقي، كما ذكر أنه لم يخف هذا السرّ عنك».

قال فيليب صارفاً بأسنانه: «لقد كرهت ذلك السافل، فقد بقي أربعة وثلاثين عاماً يبحث عن ابن لم يره قط، بينما كنت أنا معه، أنتظر الحب منه، ليته استطاع أن يرى ذلك!».

قالت مقرّة معه: «كان مخطئاً بمعاملته إياك بذلك الشكل، لكن خطأين لا يؤلفان الصواب، يا فيليب! وما تفعله أنت هنا هو خطأ.. ألا ترى ذلك؟».

رجت الله أن تؤثر فيه، وأن تجعله يتعقل، فقد يقتنع ويعيدها إلى القصر.

لكنه أطلق فجأة شتيمة بدا معها وكأن غولاً استولى على روحه هذه اللحظة، واندفع فجأة، مترنحاً، يدور حول منعطف آخر، مرسلاً النور الأمامي للسيارة كاشفاً عن فراغ رهيب كبح صرخة صامتة في حلق كارولين.

هبطت عجلة السيارة في أخدود في الطريق فانطلقت صرخة كارولين. أما فيليب فأخذ يجاهد لإخراج العجلة، راح يسب ويشتم، وهي تصرخ، بينما السيارة تندفع بعنف هنا وهناك.

سيموتان.. كانت واثقة من ذلك! سيسقطان من حافة المنحدر الصخري ولن يعثر عليهما أحد! دفعها الرعب البالغ إلى التمسك بيد

الكابح تجذبها بعنف. فمالت السيارة ثم أخذت تنزلق جانبياً، بينما جلست هي تنظر وقد اتسعت عيناها رعباً وهما ينزلقان مقتربين شيئاً فشيئاً من حافة الوادي.

ثم اصطدما بشيء صلب.. هل هي صخرة على الحافة؟ لم تعرف، لكنهما عادا إلى الخلف، وفي الوقت الذي ظنت فيه أن السيارة ستتوقف بأمان، اصطدمت السيارة بشيء آخر، فتصاعد منها صرير هائل، ثم انقلبت على جانبها بهدوء.

جلست كارولين دقائق وقد أدارت الصدمة رأسها، وتبلّدت أحاسيسها فلم تعد تتذكر أين هي، وأحست بألم في رأسها وإذا بكل ما حدث يتدفق عائداً إلى ذهنها وهي ترفع أصابعها تلمس برفق مكان الألم في صدغها، مدركة أن رأسها اصطدم بشيء ما.

إلتفتت لتنظر إلى فيليب مذعورة، فرأته منحنياً على المقود غائباً عن الوعي.

مدت يدها تلمس عنقه بحذر وخوف بالغين.. وشعرت بدفء الحياة وبنبضه، همست مرتجفة: «آه، الحمد لله».

أغمضت عينيها وهي تكرر: «الحمد لله».

أين نحن الآن؟ ماذا أفعل؟ وأين نحن في الوادي؟

عند ذلك تذكرت أن مصباحي السيارة الأماميين ما زالا مشتعلين. تقدمت إلى الأمام بحذر شديد وأخذت تنظر إلى الخارج من زجاج السيارة الأمامي، كانت معجزة أنه لم يتحطم. فتمكنت من رؤية طريق سوي، وكانت حافة الوادي بعيدة إلى يمينها.

لا بد أن السيارة انقلبت في الأخدود قرب الجبل، عمت الراحة قلبها حين علمت بذلك وهذا ما جعلها تسترخي في مقعدها متنهدة تنتظر حتى تهدىء خفقات قلبها قبل أن تحاول الخروج.

تذكرت أن فيليب أقفل الأبواب أوتوماتيكياً، ولكن لا بد أن هناك شيئاً



ما، في مكان ما، يمكنها أن تجذبه أو تضغطه لتجعلها تنفتح. وبأصابع مرتجفة زاحفة على المعدن والجلد الحالك السواد، استطاعت أن تجد شيئاً على الباب شعرت أن بإمكانها جذبه، فجذبته بقوة وسمعت الباب يفتح.

بعد ذلك فكت حزام الأمان، ومن ثم جاءت المرحلة الصعبة، وهي فتح الباب وتركه مفتوحاً. أثناء خروجها، تعلق ثوبها بشيء ما وسمعت صوت تمزقه، وأثناء كفاحها فقدت حذاءها لكنها أخيراً حطت كومة واحدة على الطريق الصلبة وهي تستجمع أنفاسها.

كان كل شيء هادئاً موحشاً جداً. فارتجفت، ثم، فجأة، لم تستطع التوقف عن الإرتجاف.. ولم يكن سبب ارتجافها هذا عائد إلى البرد في هذه الأعالي.

«إنها الصدمة، لا بد أنني مصابة بصدمة، ومن لا يُصاب بذلك بعد محنة كهذه؟».

ابتسمت للفكرة الأخيرة، وأشعرتها الابتسامة بالتحسن، وزحفت واقفة على قدميها الحافيتين، ثم أخذت تدرس الوضع بعناية.

من الواضح أن فيليب في حاجة إلى عناية، وكان هذا أول اهتماماتها، لكن المساعدة بعيدة جداً جداً.

ليس هناك خيار، ومن الأفضل أن تنتظر. فلا شك أن أحداً افتقد غيابها! لويس على الأخص.

وفي هذه اللحظة سمعته، لم يكن الآن أكثر من هدير بعيد جداً، لكنه كان هدير سيارة يخف ويعلو وكأنه يدور حول جبل.

جلست على الأرض مستندة إلى السيارة المنقلبة والراحة تزحف إلى قلبها وفي هذه اللحظة وضعت رأسها الذي عاد يؤلمها، بين ركبتيها اللتين أحاطتهما بذراعيها المرتجفتين.

إنه لويس جاء يبحث عنها، ولم تسمح لنفسها بالتفكير في أنه قد يكون شخصاً آخر. وفي الواقع، كانت خطة فيليب في اختطافها غبية. فهل ظنّ أن

باستطاعته الهرب بالسيارة من دون أن يتعقبه لويس، هل اعتقد حقاً أنه سيصل إلى حد إغوائها؟ يا للمعتوه الأحمق! ولأنها تعرف لويس، تعرف أن الطريق المؤدي إلى لوس أمينوس قد بات مقطوعاً.

كانت السيارة تقترب، وكانت تسمع الطريقة الإنسيابية البارعة في قيادة السيارة التي كانت تلتف حول المنعطفات والزوايا واستطاعت حتى سماع تغيير محرك السرعة، والكابح، والزيادة الثابتة في السرعة.

ثم برز فجأة من خلف المنعطف الأخير من دون إنذار، واستغربت ذلك وهي ترفع رأسها تنظر إليه وهو يوقف سيارة غريبة على بعد عشر أقدام تقريباً.

لم يخرج من السيارة على الفور، بل جلس مسلّطاً الضوء الأمامي عليها ثم، كما افترضت، أخذ ينظر إليها وهي تنظر إليه.

ثم انفتح بابه، احتكت قدماه بالحصى، وأخيراً بدا جسمه بكامله. لم تستطع أن ترى وجهه. حسناً، كان يمكنها ذلك لو نظرت إليه، لكنها، لسبب ما، لا يمكن تعليله، لم تشأ ذلك.

سار نحوها، ثم توقف على بعد قدمين ثم ألقى نظرة حولهما. كان المكان ساكناً هنا بحيث يمكن سماع حفيف ورقة شجر تحملها نملة، السماء كحلية اللون ترصعها النجوم، والجبال الشاهقة أشبه بعمالقة تقف بالمرصاد.

ـ أين هو؟

وكان هذا أول سؤال يوجهه إليها، وجّهه برقّة وصوت متزن، فأجابت: «في السيارة، غائباً عن الوعي».

أومأ لويس برأسه، وكان هذا كل شيء. إذ لم يوجه إليها مزيداً من الأسئلة، بل لم يلق نظرة على فيليب، أشار بإصبعه فانفتحت أبواب السيارة الأخرى التي كان يقودها، وخرج منها ثلاثة رجال، أحدهم فيتو، وتقدموا نحوهم، فقال: «تصرفوا معه».



شعرت كارولين بدمها يتجمد: «لا، يا لويس. إنه مصاب وهو بحاجة إلى مساعدة.. أنا..».

انحنى يحملها بين ذراعيه، ثم سار نحو السيارة التي وصل فيها، وكانت هي تتخيل مظهرها المضحك في ثوبها الأبيض هذا الذي أصبح ممزقاً ملوثاً، ونقابها الطويل تجرّه على الأرض الترابية خلفهما.

وعندما وصلا إلى باب السيارة، عند ذلك فقط جرؤت على النظر إلى وجه لويس، وما رأته فيه جعل الدموع تنهمر من عينيها لأول مرة منذ بدأت محنتها هذه، وهمست وهي ترتجف: «إياك.. إياك أن تصدني عنك».

لم يجب، وضعها فقط في السيارة، ثم استدار ليجلس بجانبها.

تحركت السيارة ثم انطلقت بهما، متابعين النزول عن الجبل، ذلك أنها رأت بنفسها أن الطريق، من الضيق هنا، بحيث لن يمكنه الإستدارة بالسيارة.

عندما مرا بالسيارة المنقلبة، رأت فيتو يخرج فيليب من السيارة، لكنه كان رفيقاً به وهو يمدده على الطريق لكي يفحصه. وقد طمأنها قليلاً أن ترى هذا الرفق.

بعد مسير نصف ميل، أوقف لويس السيارة حيث أصبح الطريق أوسع قليلاً، ثم استدار بالسيارة ليعودا من حيث جاءا، وعندما مرا بجانب السيارة المنقلبة مرة أخرى، لاحظت أن سيارة أخرى كانت متوقفة بجانبها وأن فيليب كان واقفاً على قدميه، مستنداً عليها بضعف ووجهه بين يديه، بينما سائر الرجال يكافحون لجرّ السيارة إلى مكان آمن، وسألت لويس بلهفة: «لن يؤذوه، أليس كذلك؟».

قال: «لا».

طمأنها هذا الجواب، فتنهدت ثم أخذت ترتجف، فسارع لويس إلى فتح جهاز التدفئة. لكن الإرتجاف استمر.

أدركت أنها صدمة وليست برداً، وربما أدرك لويس هذا هو أيضاً.

ـ أخبريني ماذا حدث بعدما ترك ذلك النادل الأحمق فيليب يقنعه بأنه أنا لكي يغريك بالخروج إلى سيارتي.

ـ سأخبرك عندما تبدأ بالصراخ والشتم، وليس قبل ذلك.

قالت له ذلك بفتور، فقال وأصابعه تتوتر حول المقود: «لا بأس، دعينا نعالج، أولاً، مشكلتك مع سيطرتي على نفسي، هل تريدين أن تري الرجل ميتاً؟ أتريدين أن تري رأسه متدلياً من جدار القصر؟ أتريدين أن تريني أقود بك السيارة إلى فوق الجبل كما أنزلك هو منه؟».

قالت: «لا».

وكان في هذا جواباً لكل أسئلته، فكرر قائلاً بهدوء: «أخبريني إذن عما حدث بعدما أخذك بسيارتي؟».

أخبرته بكل ما حدث بما في ذلك السبب الذي جعل السيارة تنقلب.. الشيء الوحيد الذي أغفلته هو الشجار العنيف الذي دار بينها وبين فيليب عن والد لويس.

أثناء ذلك مرّا بالقرية، حيث كان الجميع في الخارج، وكان ذلك أشبه بالمرة الأولى التي مرا بها من هنا. إنما، حينذاك، كان الوقت نهاراً وكان الفضول بادياً على الوجوه، أما الآن فقد بدا القلق واللهفة والشحوب على الوجوه. وهكذا لوحت لهم بيدها باسمة، وهي تتمنى ألا يدركوا أنها على وشك أن تنفجر بالبكاء.

وكان الأمر نفسه حين وصلا إلى القصر، إذ اجتمع الجميع حول النافورة، ينتظرون بلهفة، ولكن لويس أوقف السيارة ثم طلب منها، أن تبقى حيث هي.

خرج، متجاهلاً الجميع، ثم دار حول السيارة ليحملها من مقعدها، شهق بعضهم عندما رأوا حالة ثوبها الجميل ووجهها الشاحب.

تقدم أبوها يمسك بيدها، وكان يبدو مخيفاً.

قالت تطمئنه باسمة: «أنا بخير».



قال بصوت أبح: «لا يبدو عليك هذا».

كررت قائلة بحزم: «بل أنا كذلك.. كذلك».

ـ ومع ذلك، سآتي معك...

وكان هذا صوت زوج عمة لويس الذي سار إلى جانب لويس وهم يدخلون إلى الردهة الكبرى وأبوها ما يزال متشبثاً بيدها، كونسويلا كانت أول شخص رأته في الداخل. كانت واقفة بجانب مائدة الوليمة ووجهها بالغ الشحوب: «أنزلني يا لويس».

وقف، لكنه لم يستجب على الفور، فقالت بإصرار: «أنزلني، أرجوك».

وضع قدميها على الأرض الحجرية الباردة دون أن يتفوه بكلمة ولمّا تركها، سارت كارولين إلى كونسويلا ثم، ببساطة، وحزن، طوقت المرأة المسنّة بذراعيها.

تصلب جسم كونسويلا فظنت كارولين أنها ترفض ذلك. ثم أدركت، عندما أخذ ذلك الجسد المتصلب يرتجف، أدركت أن الأمر فقط هو أن كونسويلا لم تكن معتادة على أن يطوّقها أحد بأي شكل. ومع أنها تستحق العقاب لما فعلته بأختها، فقد دفعت الثمن.. فقد عاشت خمسة وثلاثين عاماً في زواج عقيم قاحل، والعيش في حرمان زوجي لا وجود فيه للحب أو العطف. وهمست في أذنها فقط: «لا بأس، إنه بخير، ورجال لويس يعتنون به».

ـ ما كان له أن يفعل ذلك.

قالت كونسويلا هذا، ولكن بعض التوتر تبدد منها. وقالت كارولين تشرح الأمر برقة: «إنه يشعر بالمرارة، ولديه الحق في ذلك، يا خالة كونسويلا».

نظرت المرأة إلى وجه كارولين متفحصة، ثم تنهدت بلهجة ذات معنى.

ـ أعطاك الكاهن اليوميات، إذن!

وعندما أومأت كارولين، أومأت هي أيضاً، وكان هذا كل شيء، لقد فهمتا، فإن قرأت كارولين اليوميات، فهذا يعني أنها تعلم بأن حياة لويس في أحياء نيويورك القذرة الفقيرة لم تكن أسهل من حياة فيليب الذي عاش هنا مع أب يزدريه ومع أم سجنت نفسها في سجن من المشاعر والندم عما فعلت. ثم قالت كونسويلا: «سنرحل من هنا هذه الليلة».

جعل قرارها هذا كارولين تنظر إليها بقلق.

ـ أنت لست مضطرة لذلك، يا كونسويلا. فهذا بيتك، وهو بيت فيليب. ألا يمكننا، على الأقل، أن نعيش هنا معاً؟

ـ لا.

وهزت كونسويلا رأسها: «في الواقع، سأكون مسرورة برحيلي، لقد حان الوقت لكي.. لقد حان الوقت لكي نبدأ حياة خاصة بنا».

وافقتها كارولين على ذلك لأسباب كثيرة، ففيليب بحاجة للابتعاد عن هذا المكان. وهذه هي الطريقة الوحيدة التي يتعلم بها التخلص من شعوره بالمرارة. نبّه صوت سيارة أخرى قادمة كارولين إلى عودة الآخرين. وكان اهتمامها الفوري هو إبعاد لويس عن الردهة قبل أن يُدخل رجاله فيليب إليها.

تركت كونسويلا وعادت إلى لويس. كان عابساً كبير الحجم وهذا ما جعل عينيها تغرورقان بالدموع وهي تسير عائدة إليه ثم التفتت إلى زوج عمة لويس، قائلة: «فيليب بحاجة إليك أكثر مني دكتور».

مضت لحظة بدا فيها وكأنه سيناقشها، لكن نظرة منه إلى لويس جعلته يغير رأيه ويومىء بالإيجاب. ثم عانقت أباها وقبلته قائلة بهدوء: «أراك غداً».

لقد فهم هو أيضاً أنها صرفته، ووقف ينظر إليها وهي تضع يدها النحيلة في يد لويس الخشنة، قبل أن يصعدا السلم.

وخلفهما، لم ينطق أحد بكلمة.



أخذها لويس مباشرة إلى الجناح الخاص بسيد القصر، كانت غرفة ضخمة فسيحة مليئة بالأثاث المزخرف والتحف الأثرية، وما إن انغلق الباب خلفهما حتى شعرت كارولين بردة فعل عكسية، إذ ضعفت ساقاها فجأة فسارت إلى أقرب كرسي تهبط عليه وهي ترتجف.

دخل لويس إلى الحمام، وبعد عشر دقائق سمعت صوت جريان الماء.

وعندما عاد إلى الغرفة، رآها جالسة وقد أخفت وجهها بين يديها. توتر فكه، ولكن كان هذا كل ما بدا عليه من ردة الفعل وهو يأتي ليقف بجانبها، ثم انحنى برفق ليرفع الإكليل والنقاب عن شعرها قبل أن يعود فيأخذها بين ذراعيه، ثم قال ملطفاً الجوّ: «آه، ما أجملك!».

لكنها لم تتجاوب مع هذا. فحملها إلى الحمام متوتر الشفتين عابس الوجه، أوقفها على قدميها ثم أدار ظهرها إليه لكي يستطيع فك الأربطة الحريرية التي تمسك بالقسم الأعلى من ثوب الزفاف.

ـ إن لم تبدئي بالحديث معي، فسأغضب.

إنفكت الأربطة وانزلق الثوب فارتفعت يداها تمسكه وتستدير لتواجهه بحدة: «لويس!».

إلتهبت عيناه، فالغضب البالغ الذي طال كبته تفجر الآن من هاتين العينين المتألقتين السوداوين المحرقتين، ثم حملها ليعانقها.

وعانقها عناقاً مدمراً.. ورفعت ذراعيها تحيطان بكتفيه العريضتين، لم تعد تهتم الآن بانزلاق ثوبها أو بساعديه اللذين يهددان بتحطيم ضلوعها. فالمهم الآن هو شعورها به يرتجف، ويحاول استعادة سيطرته على نفسه أمام المشاعر التي أخذت تتدفق منه.

قالت: «أحبك، لشدّ ما أحبك، لكنني أكره تحفظك هذا!».

ـ إما أن أسيطر على نفسي وإما أن أدمّرك.

وكان يعني هذا. يعني كل كلمة قالها مهما بدت خيالية. أخذ يقبلها، موقفاً كل حديث آخر، فالعمل، في هذه اللحظة، أهم كثيراً بالنسبة إليه من

الكلام.

تخللت شعره بأصابعها، ونظر إليها متفحصاً من تحت أهدابه السوداء. وكانت تبدو لعوباً مغرية، زوجة على أتم استعداد لكي تقدم إلى زوجها الأسباني المحموم العواطف ما يريده.

عادا إلى غرفة النوم، سائرين على السجادة الهندية التي لا تقدّر بثمن والتي تغطي الأرض المكسوة بخشب السنديان، سارا إلى السرير الذي بدا أشبه بجزيرة يمكن العيش عليه بسهولة وقتاً طويلاً طويلاً.

وحتماً، لم تكن كارولين تريد أن تغادره. كانت تريد أن تتكوّم تحت ملاءاته الناصعة البياض والمغطاة بغطاء أحمر دموي من نسيج «البروكار»، لكي تنعشها العواطف المحمومة من رجل ليس له مثيل.

وفي الخارج، خلف جدران تبلغ سماكتها أربع أقدام، استمرت الحفلة بدونهما. وفي مكان آخر، في جناح آخر من القصر، كان شخصان يحزمان أمتعتهما.

***

تمتمت كارولين بضراعة بعد وقت طويل، وهما مستلقيان بجانب بعضهما بعضاً: «لويس.. هل يمكننا أن نتحدث عن فيليب؟».

دمّر كلامها جمال هذه اللحظة، فتوتر جسمه وانقبض فكّه. وقال بصوت مضغوط غير مشجع: «إذا كان ثمة ضرورة لذلك».

لكنها قالت على كل حال: «أعرف أن لديك كل الحق في أن تكرهه هو وأمه، وأعرف أنه تصرف الليلة بشكل مروّع، ولكن..».

ومالت إليه قليلاً تنظر بلهفة إلى عينيه الباردتين كالثلج: «ليس ذنبه أن أمه اختلقت أكاذيب عن أمك أو أنها خدعت واحتالت على أبيك! وليس ذنب فيليب أنك عشت طفولة تعيسة، إنه ابن خالتك الذي كانت حياته هو أيضاً تعيسة، كما تعلم! فهو نشأ، وظلك يهدده مع أم لا تكاد تستطيع مواجهة نفسها لما فعلته بأختها، ومع أب مزعوم نبذه منذ ولادته وكره أمه



لأنها وضعته في مكانك. كل هذا محزن ومأساوي، وأنا أعرف أن لدى أبيك الحق في الشعور بالمرارة، وهو يكتب كل هذا. لقد حطم قلبه بتصديقه خالتك بدلاً من أمك، وأمضى بقية حياته معاقباً نفسه لذلك. ولكن يجب ألا نجعل فيليب يدفع الثمن. ذلك...».

ـ ماذا تعنين بقولك إن أبي كتب كل هذا؟

شهقت مذعورة وهي تدرك ما فعلت، ثم تنهدت طويلاً، وابتسمت ابتسامة ملتوية قبل أن ترفع عينين كئيبتين إلى عينيه المحملقتين فيها: «كتبه في يومياته».

ثم أخذت تحدثه، بهدوء ونعومة، بكل ما تعرف.

وعندما سألها لويس أخيراً عن مكان اليوميات، أخبرته. فنهض من سريره وارتدى معطفه المنزلي ثم خرج ليحضرها.

بعد ذلك بوقت طويل، وهو عائد من غرفة كارولين، رأى فيليب وأمه على وشك مغادرة القصر، وقف ينظر إليهما من الممر الأعلى، ورأى ملامحهما الواجمة الكئيبة وشعر بشيء يتمزق في الحجر الذي كان معروفاً بأنه قلبه.

ـ فيليب.

ناداه فرفع هذا رأسه ينظر إلى أعلى. وتابع لويس قائلاً بهدوء: «نحن بحاجة للتحدث معاً».

سرعان ما رأى لويس روح المعركة تأخذ مكانها خلف العداء الذي يسود ملامحه الوسيمة. وما لبث فيليب أن تنهد وهو يومىء برأسه، وأجاب: «في يوم ما».

ربما هو، مثل لويس، شبع من الأكاذيب والغدر والمرارة. وكرر مرة أخرى وهو يبتعد: «في يوم ما...».

أخذ لويس ينظر بجد بالغ إلى خالته وهي ترفع إليه وجهها الشاحب: «أنا آسفة».

كان هذا كل ما قالته. ولكن لويس فهم. وعلى كلّ حال، ماذا يمكنها أن تقول غير ذلك لكي تمحو كل ما حدث؟

وعندما عاد إلى غرفته، لم يجد زوجته، ألقى باليوميات على السرير ثم ذهب يبحث عنها فوجدها غارقة في في الرغوة الساخنة المعطرة في الحمام. فقال بهدوء: «رأيت فيليب وخالتي الآن وهما راحلان».

أومأت كارولين: «لقد أخبرتني بأنهما سيغادران القصر الليلة».

تنهد: «لم أكن أريدهما أن يرحلا، لم أكن أفكر قطّ في طردهما من هنا. الأسرة هي الأسرة..».

أومأت قائلة: «مهما كانت العيوب. أعرف هذا».

مشيرة بذلك إلى عيوب أبيها، ومدت يدها تمسك بيده تقبل أصابعه، ثم سألته: «هل قرأت اليوميات؟».

ـ همم.. نعم. كنت أعرف بعضها، أولاً من أمي، وبعد ذلك من أبي، عندما حاولنا أخيراً التواصل.

ـ منذ سبعة أعوام.

تنهدت كارولين بكآبة، وهي تفكر في كل تلك السنوات التي ضيّعاها.

ـ نعم.. منذ سبعة أعوام عندما قمت برحلة إلى أسبانيا مطالباً، بكل كبرياء، بجذوري. ولكني وقتذاك تعرفت إلى المرأة التي طالبت بي بدلاً من ذلك.

ـ آسفة.

قالت ذلك وهي تفكر بالقسوة التي استغل بها أبوها أحدهما ضدّ الآخر.

ـ أخبرت أباك يومذاك بأنني أحبك وأريد أن أتزوجك. فقال لي بأدب أنني لست كفؤاً لابنته، وقد وافقته على ذلك. وما زلت، في الحقيقة.

أضاف ذلك عابساً، فأضافت هي باسمة: «لكنك كنت ستحصل عليّ بأي شكل. لا فرق يذكر بينكما، أنتم الثلاثة، أنت وأبي والمسكين فيليب،



لدى كل واحد منكم دوافع أنانية بشكل غير معقول».

ـ كان فيليب على حق حين قارن حياة أبي بحياة جدي الذي بنى هذا القصر، فهو التاريخ يعيد نفسه.

تمتمت تقول بنعومة: «ولكن ليس هذه المرة. لقد حصل الكونت، هذه المرة، على امرأته، وهكذا كانت النهاية سعيدة».

امتلأت عينا لويس رضاء: «ونهاية سعيدة جداً».

وانحنى يقبلها...

***